للملائكة وجهٌ آخر

تأليف

إنجى صالح

obeikandl.com

الطبعة الأولى
الكتاب : للملائكة وجهٌ آخر
المؤلف : إنجى صالح
تصنيف الكتاب : رواية
لوحة الغلاف : يوروز
تصميم إخراج : احمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٠٤٥١ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : 5 - 118 - 776 - 977 - 978

دار يسطرون

يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

طباعة وتوزيع الكتب فى جميع أنحاء العالم
المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت محطة المطبعة
شارع الملك فيصل - الجيزة
جمهورية مصر العربية
٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢ ـ ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩
مدير الإنتاج : أحمد عبد الحليم
المدير العام : أحمد فؤاد الهادى
رئيس مجلس الإدارة : عماد سالم
بريد إليكترونى : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

obeikandl.com

فـى نقطـةٍ مـا علـى خـطِ الزمـانِ الوهمـىّ، فـى إحـدى جهـاتِ الأرضِ الأربـع، وقعـت أحـداثُ روايتِنـا، لأُناسٍ..ليسـوا غريبـين عنـا؛ عاشـوا معنـا و عاشـوا فينـا؛ عرفناهـم كمـا نعـرفُ أنفُسَـنا. الشـئُ الوحيـد الـذى يَفصِلُهُـم عـن واقعِنـا هـذا أن أحـدا لم يخبرْهـم قـط أن.. للملائكـةِ وجهـا آخـر.

الفصل الأول

– لحظة واحدة!

تضع سمّاعة الهاتف جانبا و تقف بقوامها الممشوق. تقترب من النافذة لتغلقها فتخفت الضوضاء قليلا، ثم تعود إلى المقعد و تلتقط السماعة مرة أخرى:

حسناً (ليليان)! ماذا كنتِ تقولين؟

– أقول لِمَ لا ترحلين ببساطة (كارما) إن كان هذا ما تريدين؟

– أنت تسخرين منى. أليس كذلك؟

– ممم...ليس تماما. أنا فقط لا أفهمك! إما أنك مثالية للغاية أو متمردة للغاية.

– أو أنك ساذجة للغاية! أو أنك جائعة للغاية و شهوة بطنك قد هيمنت تماما على عقلك فاستحال دلوا من القشدة!

وضعت سماعة الهاتف دون وداع و ليس هذا بشئ يزعج (ليليان). ليس فقط لأنهما كالأختين، و ليس لأن (ليليان) بطبعها فتاة مسالمة تنمو حيث تسقى، لكنها على الأغلب قد حفظت

obeikandl.com

أفعال (كارما) و إن عجزت عن تفسيرها. هى تعلم تماما ما تفعله هذه الشابة الغريبة – كما يصفونها – حينما تضيق روحها بفعل أو حديث؛ فهى.. تختفى ببساطة. تفعل ذلك معها فى أحاديثهما الطويلة أطراف الليل و النهار، و مع والدتها التى شابهتها صورة و خالفتها ضمنا –و إن كان أجدر القول أنها خالفت الجميع–، حتى أنها طالما فعلت ذلك مع والدها الذى رحل منذ سبع سنوات حين كانت مراهقة فى الثالث عشر، و الذى لا تنفك تكرر كم أحبها كما لم يحببها أحد قط. تعلم أيضا ما تفعله عندئذ، حين تنفرد (كارما) فى غرفتها –كمعظم الأحيان–؛ تختفى بين سطور إحدى روائع الأدب العالمىّ، أو تذوب كما ملح البحر فى مياهه فى مقطوعة موسيقية "تجسد واحدة من أجمل صور إعجاز الخالق فى خلقه، و إبداع الفنان الأعظم إذ ما صور فنانا" كما عبّرت لها ذات مرة.

كان لتلك "النعم" الفنية فى نفس (كارما) ما تعجز عن وصفه أحرف أعظم اللغات؛ يعترش ذلك كله سؤالٌ يقفز له كيانها فى غير هدوء: كل هذا الجمال فى الكون يا (كارما) و أنت لا تدرين؟! ماذا هنالك من الجمال بعد لا تدركين؟ فى الآفاق التى لم تفتح أمام عينيك.. فى النطاقات التى لم تشملك رغم اتساعها اللامحدود، لبعدك الفارق عنها،

فـى الموسـيقى التـى لم تُسـمع بـل لم تُخلـق بعـد علـى يـد فنـان! فـى الحـروف التـى لم تُقـرأ أو قُـرِأت و لم تُـدرَك أو أُدرِكـت و نسـيتها العينـان، فـى نقطـةٍ مـا فـى عمـقِ الزمـان .. حيـث أبعـد مـا يمكـن للـروح أن تصـل و للعقـل أن يـدرك و للنفـس أن تتأمـل.

كل ذلـك تعلمـه منهـا (ليليـان) رغـم أنهـا –فـى العـادة– لا تفهـم مـن كلماتهـا شـيئا. لكـن مؤكـد هـى تذكرهـا جيـدا تلـك اللحظـات حـين يأخذهـا شـغف الخيـال، فتخبرهـا كـم تتـوق للابتعـاد عـن هـذى الجهـة مـن الأرض "التـى لا تعـرف سـوى مفـردات المـادة و الشـهوة، والكفـر و الحـرب" إلى إحـدى عواصـم الفـن و الأدب حيـث تتغـذى الـروح و الذهـن خـير غـذاء:

آهٍ يـا (ليليـان) عندمـا أقـرأ إحـدى كتـب الميثولوجيـا، أرى نفسـى أجـول شـوارع الإغريـق العتيقـة، حيـث عبـق الأدب و الحضـارة يفـوح مـن الأرض، المبانـى، الأعمـدة و الحجـارة، أو أستمع إلى واحـدة مـن تلـك الموسـيقى، فـإذ أنـا فـى إحـدى قاعـات الأوبـرا الإيطاليـة أسـتمتع بأنغامهـم العذبـة، ثـم أخـرج فأسـير فـى شـوارع (رومـا) حيـث الرسـامون اتخـذوا أماكنهـم فـى زوايـا الميادين الحيّـة و علـى طـول سـور المتوسـط؛ يسـتلهمون الطبيعـة الرائعـة أمامهـم وهـؤلاء الذيـن يرقصـون بشـغفٍ رقصـةً للـروح و الفـن و الحيـاة، أو لأجـد نفسـى بـين أضـواء (باريـس) أو فـى

ساحات (برلين)، حيث الفنانون على اختلاف أرواحهم ينحتون، يصورون و يرسمون، يكتبون الشعر و يؤلفون الموسيقى.

تعلم كم من مرة إذ يضيق بصديقتها المدى فتتمنى لو انطلقت تركض في الآفاق المفتوحة ليس بينها و بين السماء حاجز، في لحظات تتحرر روحها مما يقيدها و يتخلص ذهنها من سموم تتسرب إليه كل لحظة عن طريق اللاوعي، فتصبح فوق قشرة الأرض خفيفة.. كريشة سقطت من السماء إلى الأرض كما هو حال (آدم) و بنيه. كم من مرة بدلت ثيابها و فتحت بابها فكادت تفعل، و ما منعها عن ذلك سوى صوت العقل، الذي يأتي أحيانا مغايرا لحاجات النفس أو مقيدا للروح، خوفا على صاحبته من تلك الكائنات الغريبة التي لا تشبه شيئا مما جبله الله؛ يطلقون على أنفسهم لفظ البشر و ينعتون أنفسهم بنعت الإنسانية و هم أبعد ما يكونون عن ذلك الكائن القدسيّ، الذي يحيا بنفخة من روح الإله الأحد و سجدة من ملائكة النور. أناس لا همّ لهم سوى مسح الشهوات على إختلافها و التي لا تزيدهم سوى شراهة و كره لأنفسهم و حيواتهم، التي لا ينفكون يلعنونها ليلا و نهارا و يستميتون عليها رغم ذلك بكل الطرق. إيمانُ بعضِهم كفرُ بعضٍ و كفرُهم إيمان.

(كارما) حسناء عشقتها الطبيعة كما تعشقها فمنحتها من ألوانها الكثير. فى عينيها لون الشجر متوهجا بوميضٍ من النار. شعرها كخشبِ غابات تعكس أشعة خالصة من نور الشمس؛ امتزجت به امتزاجا تاما حتى ليحتار الرائى: هل منحت الشمسُ الخشبَ لونَها أم منحت الأخشابُ الشمسَ الانعكاس؟! رغم ذلك.. لم يكن خوفها وليد هوسٍ بسبب جمالها ولا مبالغةٍ لمقتها ذاك المحيط، لكن عن ذلك أخبرت صديقتها:

اسمعينى (ليليان)! فى بلادنا لا تشرق الشمس. هنا أطفالٌ لا يعرفون البراءة و رجالٌ لا يعرفون المروءة، إناثٌ مات جمالهن على المرايا و قُتِلَت أنوثتهن على الطرقات، أديانٌ تُهتَك فوق المنابر و المذابح، أرضٌ لا تعرف الحق أو الأمان.

هكذا كان حال هذه الجهة من الأرض. و هكذا كان شعور (كارما) بالقيد التام لا ينقشع إلا على أعتاب سمائها الخاصة.

★★★

دخلت أمها بينما وقفت تنظر من النافذة المطلة على ازدحام دائم:

— ألم تبدلي ثيابك بعد؟!

— و لم قد أفعل؟

– لأنك ستأتين معنا و (ريان) فى نزهتنا بسيارته.

– ها أنت قلتها، نزهتكم ! ليس لى بذلك شأن.

– ستأتين يا (كارما)، و اتقِ شر غضبى و نفاد صبرى!

– لن أذهب و لا أدرى ما المغضب فى ذلك؟!

"ماما!" جاء صوت أخيها الأصغر مقاطعا حديثهما مصاحبا صوت الإنذار المتكرر من سيارة (ريان).

– هذا الغبى ذو السيارة الفارهة! ألا يمكنه أن يوقف صوت سيارته المزع ؟!

ضحكت (كارما) بصمت و هزت رأسها فى سخرية من تعليق أمها الذى قالته قبل أن تغادر الغرفة على عجل، بعدما رمقتها بنظرة مليئة بالوعيد و الغضب؛ اتسعت فيها حدقتا عينيها إتساعا مخيفا. أدارت وجهها لتستمر فى التحديق إلى الزحمة والعوادم بالخارج، حتى ظهرت أمامها السيارة التى تحمل أهل بيتها و جارها. تتبعتها بنظرها و هى تبتعد فتصغر شيئا فشيئا حتى اندثرت بعيدا. ابتعدت عن النافذة و راحت تجول أرجاء المنزل فى ضيقٍ من أمرها كله. مجموعة من المشاعر الرهيبة تحاصر روحها و مداها كاملا، كشخصٍ قُبِر حيا فى عنفوان حماسه و

شبابه، ميّت قد ملّ انتظار البعث، سجينٍ ينتظر الإطلاق لا يدرى من يحمل مفتاح زنزانته، كمن يكتم فى قلبه صرخةً.. إن خرجت لمزقت الأضلع، و نثرث ذرات المدى و المجال.

ركضت عائدة إلى غرفتها تسابقها دموع حائرة، ضالّة عن وجهتها، بعيدة عن الديار. لم تدرِ إن كانت مبررة! لم تعُد تدرى إن كانت تملك حق ذرفها! من على وجهه و من على الصراط؟ من أين جاءت و من أين جاءوا جميعا، و إلى أين الجميع على هذا الحال ذاهبون؟ من هى و ماذا تفعل هناك؟ ماذا حدث؟! غامت الصورة ثم أظلمت أمام عقلها فجأة، حتى امتلأ قلبها من هذا الظلام رعبا.

"تحرري يا نفسي التى بين جنبىّ! تحرري من جسدك، من الأشخاص و الجمادات و الأشياء جميعها حبها أو كرهها! تحرري من نقاط الزمن و من زوايا الأماكن! يا نفسي التى بداخلي! قولى لى..ماذا بروحى تفعلين؟ موتٌ بطئٌ ينتظرنا فماذا أنتِ تنظرين؟! أخبرينى.. لم لا تُطْلَقينَ و فى الآفاقِ تُحلقين؟! للجمالِ تسمعينَ و ترتأين، تكتبينَ و تقرأين، تنشدينَ و ترقصينَ و معنى الحياةِ تُدركين. يا روحٌ تقبع داخلى بين خيالٍ و رمق! أنورَ الشمس تفضلين أم شعاعا آفلا فى الغسق؟ أنتِ حقيقة أم سرابٌ للورى؟ ماذا تريدين –بدلا عن البحار– من الظما و عن السماءِ

من الثرى؟! يا شقائي.. يا شقائي إن تقنعى بظلالٍ وَ صدى!"

مرت بضعة أيام تجاهلت (كارما) كل ما حولها. لم تحاول أن تتجاذب أحاديث مع أمها، خاصةً بعد الصدام الشاق تلك الليلة عقب عودتها -لأنها "لا تقدر (ريان) حق قدره"-. لم تعد تفكر أن تبذل عناء محاولة اطلاع (ليليان) عمّا بها. قضت ليلها و نهارها تفكر:

لم غامت الصورة لهذه الدرجة؟ أين إطارها و ألوانها ومحتواها؟ متى حل الظلام فضاعت اللقطة؟ أين أنا من لقطة الإعادة قبل أن يتحول المشهد أو يحول الليل؟

فكرةٌ واحدة تسيطر عليها .. الخلاص، الخلاص من المحيط الذى سأمته و سأمها. لابد و هناك منفذ إلى واقع جديد؛ تجد فيه لنفسها و أفكارها و فلسفتها فى الحياة مكانا. تأملت و تتبعت خيوط أفكارها و أحلامها حتى عادت الصورة واضحةأمام عينها، كاملة فى ذهنها ربما كما لم تكن من قبل. صورة للحياة الحقيقية التى تريد، و التى طالما بحثت عنها فى واقعها و لم تجدها. صورة لذلك الممر الذى سيأخذها إلى هناك.. حيث كانت فى الخيال ذات مرة.

الفصل الثانى

مرَّ ما يقرب الشهر و (كارما) تحضر لخطتها المثالية التى ستخرجها من هناك. تدرك أن من الخطة حياة، و لأن حيواتنا وحيدة الاتجاه –ما من مجالٍ للعودة إلى الوراء و ما من متسعٍ زمنىّ للتردد– فهكذا على بعض الخطط أن تكون؛ ما من مجالٍ للخطأ و لا مدىً للتغيير.. مثالية و مطلقة.. تماما كالحياة التى نود؛ نبذل وسائلنا و نقدم كل غاياتنا فى سبيل حلمنا الأسمى فيها، فالطريق وحيد الاتجاه، و ربما سره أنه لا يعيدك لذات الجحيم ثانية.

★★★

جلست على كرسىّ فى منتصف الشقة الخالية من الجميع إلا هى. تنتظر زائرا.. الخوف يملؤها. "يا نفسي التى بداخلي لا تخافي و لا تخجلي ! .. إن أردتِ حياة الروح فما للجسد من قيمة." نظرت فى ساعة يدِها؛ دقات قلبها تسارع عقربيها.. رهبة وتردد عظيمان. "لا عليكِ يا (كارما).. ما ذاك الجسد إلا مرقد للشهوات و محط للرغبات. أو لا يرمّدون أجساد الموتى كى

تحلق أرواحهم حرةً فى السماء، فلا تعود و تنظر إلى الأرض أو تتشبث بجسدٍ مدفونٍ بين طياتها، ولا يعود يربطها بها رابط؟ أوليس هذا وثنهم الذى يعبدون؟! اللعنة عليهم و على إلهِهم البالى..“

قطع حديثها مع نفسها صوت أقدام –من الخارج– تقترب. أنصتت بسكون تام قطعه جرس الباب حتى لانتفض جسدها و مضغتها معا. نظرت فى المرآة بجوار الباب بشكلٍ تلقائى. كان وجهها الجميل يعلوه الاصفرار. ”ما هى إلا خطوة واحدة نحو المنفذ.“ استقامت فى مشيتها و توجهت نحو الباب فى ثباتٍ و ثقة مُفتعلين .

– مساء الخير يا (كارما)!

– أهلا (ريان) كيف حالك؟

– بخير.

– الحمد للّه. آه .. تفضل!

– شكرا! أخبرتنى أنكِ تريدين التحدث معى!

دقات قلبها تعلو فى أذنيها. تعلم أن قلبه كذلك رغم ما يظهره من جدية و جفاف معاملة، فحبه لها لم يخفَ يوما على أحد.

"ها أنا أستمع." تطلعت إليها عيناه بفائض من الحب و الجزع، من جبهتها العاجية مرورا بجسدها الذى يغطيه ثوب صيفىّ من القماش الأبيض، حتى قدميها الرقيقتين اللتين التفت حوليهما شرائط نعلها الأزرق. استجمعت ما بداخل رأسها من بقايا أفكار و ما على لسانها من حروف، بينما مشاعر الخوف و التردد تغيم بها من كل ناحية. اقتربت من مقعده حتى لم يبقَ بينهما سوى المسافة الحميمية؛ ما زاده توترا و شوقا كما توترها و غصتها.

– (ريان) أعرف أنك .. أعنى أن ما أود قوله هو... حسنا! من الواضح أنى لا أعرف ماذا أقول؟!

لاقت عيناها عينيه السوداوين. كان وسيما أسود الشعر ينبض بالرجولة و الصرامة. مدت أناملها الرقيقة فلامست عنقه الصلب و عيناها تعكسان ضعفا و رهبة. جذبها نحوه بقوة من ذراعها و نفث فيها شوقه كما تُنفَث شعلة السيجار.

– أحبكِ (كارما). آهٍ منك يا (كارما) آه. أنتِ تحبيننى؛ نعم! تحبيننى كثيرا...

"لا قيمة للجسد فى سبيل الروح إذن؛ ذلك الجسد الذى يعيشون أسرى له و لرغباته؛ يُسجنون عمرَهم فيه و يموتون فيه فلا يعيشون أبدا. هل هذا ما يريدونه؟ هل هذا ما يسجننى؟! حسنا! سأتخلص منه فلا يطاردونه ولا يطاردنى، فيصبح الطريق وحيد الاتجاه؛ يأخذنى إلى هناك دون احتمال للرجوع. نعم.. لا مجالَ لفشل الخطة، فالطريق وحيد الاتجاه."

obeikandl.com

الفصل الثالث

– آنستي .. آنستي!

انفتحت عيناها الكبيرتان فرأت وجه المضيفة البشوش يبتسم فى وجهها:

عذرا! أحضرت لكِ شرابا لأنكِ لم تطلبي شيئا منذ أقلعنا، كما أننا على وشك الهبوط.

أومأت (كارما) ببسمة ممتنة ناعسة ثم نظرت عبر الزجاج عن يمينها. رأت سماءً هادئة؛ توحى نعومة الأشعّة الذائبة بين سحبها المتعانقة لما بعد العصر. أمسكت الشراب المنعش أمامها و شربته دفعة واحدة فإكتشفت مقدار عطشها. نظرت فى ساعة يدها التى سرعان ما تنبهت أن وقتها لم يعد ذا معنى. فى اللحظة ذاتها، جاء الصوت الخلفىّ من الطائرة يعلن الاستعداد للهبوط.

و فى مكانٍ آخر على هذه الأرض، كانت السيدة الجميلة تجمع تلك الحروف بخط ابنتها بين شتات السطور:

" أمى..

لا تعرفين كم أمسكت من قلم و مزقت من أوراق كى أخبرك بما تقرأين الآن. لقد أحببتنى دائما و تعلمين كم أحبك رغم كل شئ. أدرى أنك لم تريدي لى يوما سوى الأفضل، كما تدرين أننى لم أكن لأقوى على البقاء و أنت أعلم الناس بذلك. لقد ابتعدت يا أمى إلى حيث أردت أن أكون دائما، حيث أجدر بي أن أكون و يُقَدر لي أن أكون، حيثما تشرق الشمس يا أمى، حيث أبعد ما يمكن للروح أن تصل و للعقلِ أن يدرك و للنفسِ أن تتأمل.. لأرض (آدم و حواء) التى لم نرها نحن. رحلت و لن أعود إلى أرضكم أبدا، بل سأنسى أننى جئت منها يوما، لكن لن أنساك و سأُصلى لأجلك دائما و لأجل سعادتك؛ إنى أعلم أنك سعيدة حيث أنتِ، فكوني سعيدة من أجلى، فأنا أبدا سأكون.“

انطبقت الورقة باليد الكهلة بعدما مرت بها دمعة، سقطت بعد أن لامست شفاة، رسم الوجع عليها ابتسامة.. ابتسامة أمل فى السعادة الدائمة لمن نحب، أمل أن يصحبهم الخير وأن تحالفهم السعادة، أمل أن يجدوا ما يأملون حيث يأملون.. أمل و إيمان فى لقاءٍ قريب يجمعنا بهم و لو على غيرِ موعدٍ.

★★★

خرجت (كارما) من الطائرة فشعرت بنسمات الهواء الوافرة من كل جانب تنعش حواسها. عانقت مقلتاها الأفق المفتوح أمامها؛ ها هما يتقابلان ليس بينهما حاجزٌ. كانت تنظر فى الوجوه حولها بينما تتحرك عبر مراحل المطار، وجوه لم تميز منها أحدا بل لم تميز لها أرضا. "على الأرجح كل هؤلاء هاربون -مثلى- إلى النعيم." أنهت مرورها فى المطار الواسع سريعا، و ساعدها أنها لم تحمل سوى حقيبة يدها. فى الخارج، وقفت برهة تستوعب كل ما هى فيه، كل المسافة التى قطعت وصولا لتلك الأرض التى تقف فوقها. "يا إلهى! لم أحسبنى هبطت فى يومِ عيد!" على بعدٍ ليس كبيرا من المطار، رأت ميدانا فسيحا انتشر فيه الخلق فى حرية يسيرون و يضحكون، أطفالا يركضون حاملين الحلوى الملونة. شعرت أنها أمام لوحة زاهية للمدينة السعيدة أو نموذج من الصلصال الملون لهذه المدينة الجميلة. "بحق الفردوس! هل أنا حقا هنا؟!"

اقتربت لتصبح جزءا من اللوحة البهية. تحركت بين هؤلاء الخلق المشرقين كأشعة الشمس البكر. تسير بينهم و تتنقل بعينيها فى غيث مشاعر من النشوة و الدهشة يصعب وصفها. كأنها سقطت فى حُلمٍ باسم لا تود أن تخرج منه أبدا -و لا أحد قد يفعل-، حتى وجدت نفسها واقفة أمام شاب

يمسك جيتارا. يعزف واحدة من موسيقاهم المفضلة بأنغام تنبض حلاوة، و من جواره صبيةٌ صهباء تخطو و تتراقص بعذوبة. رفعت عينيها إلى السماء فلمحت فيها خيطا ليليا يداعب بياضها. أثار فى ذهنها حقيقة أنها لا تعرف أحدا فى هذا الليل الآتي، و أن خطتها لم تكتمل، بل ينقصها أهم ما فيها؛ هو ما أتت لأجله من بلادها البعيدة، و ما جعل اختيارها يقع على هذه الأرض بالذات دون غيرها.

لم تسِر كثيرا حتى وصلت محطةً، حيث استقلت مباشرة الحافلة التى قادتها نحو وجهتها. بعد نحو ساعةٍ، وقفت –وقد خيم عليها الليل– وسطَ أراضٍ واسعة من الأخضر الذى لم يعُد لونه واضحا فى الظلام، لكن روائحه تتناثر بكثافة فى هواء الليل القشعريرى فى الناحية الهادئة، و مزيج من أصوات أسلاك الكهرباء و الحشرات بين النباتات و المروج. بدأت ذبذبات البرد تسرى تحت جلدها، و يصعب الجزم ما إن كان وحده الطقس الغريب سببها. أخذت نفسا عميقا و بدأت بالسير. بدت لها كل البيوت فى هذا الظلام لا تميز نفسها على الإطلاق. اقتربت من الأول أمامها و قرأت رقمه، ثم راحت تهرول على الطريق بين المنازل بحثا عن واحدٍ.. هو مقصدها.

بعد سير ليس بقليل على المسافرة الصغيرة، ميزته لحظة لمحته. لم تدرِ كيف، فلم يختلف عما حوله من منازل قليلة! اقتربت نحوه فى خطواتٍ بطيئة، و قد وصل إرهاقها حدا باتت تشعر معه أن حواسها لم تعد تميز سوى رائحة رهبتها و رنين توترها. عبرت بوابة صغيرة مفتوحة للحديقة أمام المنزل، و مشت بضع خطوات حتى ظهر لها الباب الخشبى الصلب كحارسٍ ضخم يتعمد إخافتها. مدت أناملها لترن الجرس و لكنها عادت و أبعدتها. رفعت قبضتها لتدق على الباب ثم أنزلتها، و فجأة.. رفعتها عاليا و دقت بعصبيةٍ و إصرار؛ ربما كان ذلك إرهاقها الذى لم تعُد تتحمله.. وربما خوفُها من الظلام و الهدوء الراقدين حولها؛ على الأغلب كانت تعاند توترها و تقاوم رهبتها، و تتغلب على ترددها الذى فات أوانه.. حتى انفتح الباب فتحة اندفعت خلالها حالما انقطع عن دماغها البث.

الفصل الرابع

كانت تتقلب من جنبٍ إلى جنب على الفراش الوثير حينما فتحت عينيها ثم نهضت جالسة. أمسكت أسفل رأسها بيدها حيثما شعرت ببقايا ألم قوى بينما هى تجول ببصرٍ سريع فى أرجاء الغرفة؛ تحاول تَذَكُّر آخر ما رأته عيناها قبل أن تغيب عن الوعى. رأت نفسها فى مرآةٍ كبيرة أمامها، فتحولت ببصرها لجسدها الذى كان فى غير ثيابه. لم تملك لحظاتٍ كثيرة لتستعيد من ذاكرتها ما أرادت حتى انفتح باب الغرفة. تضاءلت بجسدها تحت الغطاء الكثيف ترقب ذلك الوجه الذى سيظهر عن الباب.

— أخيرا استيقظت! كيف تشعرين؟

— بخير.. عفوا و لكن.. من أنت؟!

— أليس من المفترض أن تسألى قبلا أين أنت؟ أو أنك تعرفين؟

— و أين أنا؟

— فى منزل (آدم أبيض). (قالتها المرأة الخمسينية بمكرٍ و سخرية تعلو تقاسيم وجهها الجاد و فمها الحاد. ركزت بصرها على

الشابة فوق السرير مما جعلها تتململ تحت الغطاء فى توتر.)

"اشربى هذا." ناولتها كوبا بدا كالماء.

- هلّا أخبرتِنى من فضلك ماذا حدث لى بالتحديد؟ من أنت و أين أنا؟ و أين ثيابى؟!

- أين أنت؟ أخبرتك أنك فى منزل (آدم أبيض) و أراهن أنى لست بحاجة لأخبرك من هو. من أنا؟ أنا مديرة هذا المنزل، أما ماذا حدث؟ لقد سقطتِ على عتبة المنزل كالقدر المُعَجَّل فأحضرنا لك طبيبا، و من حسن حظك أن قال أنك تعانين إعياءً شديدا و هبوطا فى ضغط الدم. لولا ذلك لاعتقد أستاذ (آدم) أنك إحدى أولئك الخرقاوات اللاتى يطاردنه، مع ملاحظة أنى ما زلت لا أستبعد هذا الاحتمال.

نزعت الغطاء عنها بسرعة و همّت واقفة إستياءً من أسلوب المرأة.

- حسنا، أين ثيابى من فضلك؟ أشكركم كثيرا على ما فعلتموه معى! أريد المغادرة حالا.

- لا أعتقد ذلك ممكنا. أوصانى أستاذ (آدم) أن أعتنى بك حتى تستردي كامل حيويتك. ذلك طبعا بعدما بحثنا

فـى أغراضـك فعلمنـا أنـك غريبـة، ولم نعـرف لـك أحـدا فـى هـذه البـلاد. هيـا! فلتشـربى هـذا الـدواء بسـرعة. ...”اسـتنتاجا مـن تعليمـات الطبيـب لا يمكنـك المغـادرة الليلـة.“ أضافـت بينمـا أدارت ظهرهـا، بعـد أن تركـت صينيـة بجـوار السـرير تحمـل الـدواء و بعـض الأطعمـة. خرجـت سـريعا متجاهلـة تلـك الفتـاة التـى كانـت تهـم بقـول.

”يـا لهـا مـن بدايـة! كيـف يحتفـظ فنـان مثـل (آدم أبيـض) بامـرأة كهـذه فـى منزلـه؟! أقسـم أنهـا تطـرد الوحـى و الملائكـة.“

شـربت الـدواء ثـم ألقـت بنفسـها فـوق السـرير و أطبقـت جفنيهـا بشـدة. عندمـا فتحتهمـا، قابـلا سـقف الغرفـة. اندهشـت مـن جمالـه فـى تصميمـه الهرمـىّ و زخارفـه المتقنـة. اتـكأت علـى كوعهـا و نظـرت عـبر المـكان. تعجبـت كيـف لم ترَ ذلـك الجمـال المحيـط بهـا مـذ اسـتفاقت: ”مـا هـذا؟! ..أشـعر أنـى سـقطت فـى لوحـة رومانيـة.“ كانـت الغرفـة قطعـة فنيـة علـى الرغـم مـن عـدم إتسـاعها. مـن السـقف إلى الجـدران الصلبـة و نقـوش الأعمـدة و الزوايـا، قطـع الأثـاث القليلـة و تصميماتهـا فـى المسـاند و الأرجـل، فـى سـريرها الغـاوي حتـى تلـك النافـذة الناقوسـية علـى مقربـة مـن إحـدى جانبيـه. نهضـت و فتحتهـا فظهـر أمامهـا امتـدادُ فجـرٍ يسـافر مبتعـدا عـن أراضٍ واسـعة مـن الأشـجار و الفاكهـة،

يخيم عليها هدوءٌ باردٌ صافٍ زكىّ. صورة واضحة لا ضبابَ فيها ولا غمام. تحركت فى الغرفة فلمحت فى إحدى زواياها بابا صغيرا لحمام تكامل معها فى الذوق و الفن. "آه..كم أنا فى حاجة إليك!" خلعت قطعة الثياب الخفيفة التى غطت جسدها بطوله و استلقت فى حوض الاستحمام الذى ملأته بالماء و العطور. استرخت تماما و قد بدا لها كل شئ متناغما فى البهاء والروعة. هى الآن فى المكان الذى قطعت لأجله المسافات واختارته ليكون بوابتها إلى نعيمها المأمول.. منزل (آدم أبيض).. إمام الموسيقى. ذلك البشرى الذى لا يشبه إلا الملائكة. موسيقاه كألحانٍ سماوية أُنزِلَت مع الكتب المقدسة. الآن هى فى منزله الذى لا تشك أن يكون معبدا للفن و الروح. تذكرت جملة تلك المرأة عن "هؤلاء الخرقاوات اللاتى يطاردنه"؛ أزعجتها و هى تتردد فى مسامعها و تسأل نفسها: هل أنا حقا واحدة من هؤلاء؟! (– بالطبع لا).. ارتاحت لمّا انجلت الإجابة واضحةً لها، فهى لم تأتِ سعيا وراء (آدم أبيض)، لكنها أتت لتجاور موسيقاه التى عنت لها دائما انعكاسا حيّا لكل معانى الروح و مبادئ الوجود، و قيم الحق و الخير والجمال، لتُسقى فى المكان الذى نبت فيه لعلها تتطهر مما علق بها من أرضها. من بين خيارات عدة بحثا عن منفذ للحياة و باب للبعث،

لم يكـن منـزل (آدم أبيـض) هـو خيارهـا و لكـن "معبـده الفنـيّ".

لقـد ضحّـت بمـا لا يعلـم إلا الله وحـده كـم كان عِـزّا عليهـا أن تضحـى بـه لتمـزق شـرنقة واقعهـا المقيـت الـذى كانـت تحيـا، لكنهـا عملـت للحظـة حسـاب الملائكـة لهـا حتـى تكـون جـزءا مـن هـذا المعبـد راهبـةً فيـه، تنفصـل عـن البشـر بشـرورهم و شـهواتهم، تطلـب العفـو و العفـة بالفـن و روحانياتـه عـن كل مـا فـات مـن حياتهـا، فمـا كانـت لتخاطـر أبـدا و تنسـى تقديـم القرابـين، و الآن فيمـا تبقـى لخطتهـا مـن خطـوة، حتـى إن خانتهـا الخطـة أو هزمتهـا القرابـين، فلـن تـبرح مكانهـا مـن المعبـد حتـى تصبـح –تحـت جنـاح راهبـه– إحـدى ملائكتـه.

خرجـت فوجـدت ثيابهـا قـد وُضِعَـت بترتيـب علـى السـرير. "تلـك المـرأة قـد دخلـت غرفتـى ثانيـة!" قالتهـا فـى ضحكـة شـهية، ثـم بـدأت تتحضّـر لجولتهـا الأخـيرة.. جولـة البقـاء.

الفصل الخامس

ارتدت ثيابها و اختزلت شعرها الطويل فى ضفيرة طالت آخر ظهرها المستقيم. نظرت يمينا و يسارا خارج باب الغرفة، ثم تقدمت نحو السُّلم على أول الممر و بدأت تهبطُ درجاته. فى الطابق السفلى رأت الباب الضخم الذى دخلت منه بالأمس. هدوءٌ تام يخيم على المنزل بطابقيه اللذين لم يظهر لها فيهما ظل. قررت العودة إلى تلك الغرفة لئلا يستيقظ أحد و يجدها تتجول فى المنزل، فهم لا يعرفونها على أى حال! و بينما تصعد درجات السُّلم ظهر أمامها رجل أربعينى متوسط الطول، أشقر جميل المُحيّا، بهى الطلة كأسماك الزينة. يرتدى قميصا و سروالا أبيضين. ابتسامته الرفيعة على شفتيه الدقيقتين تنعكس فى عينيه الذهبيتين.

– أستاذ (آدم)!.. كنت أبحث عنك. (واجهت صعوبة شديدة كى تنتزع تلك الكلمات من حلقها بعد لحظات من ظهوره أمامها.)

– توقعت ذلك عندما سمعتك تغادرين الغرفة.

– أنا فى غاية الأسف على كل الإزعاج الذى سببته منذ قدومى.

– كيف حالكِ اليوم؟ (قالها و شرع يهبط ما تبقى من سلالم فتبعته تلقائيا.)

– أفضل، شكرا! فى الحقيقة وددت أن أشكركم كثيرا على استقبالكم لى و أعتذر عن إزعاجكم.

– هل أحضرت لكِ السيدة (بلقيس) الفطور؟

– لقد اهتمّت لأمرى كثيرا، لكن لابد و أنها نائمة، فقد ظلت مستيقظة حتى أول الفجر كى تتأكد أن آخذَ الدواء الذى أوصى به الطبيب و أتناول شيئا.

– جيد جدا. لندخل مكتبى إذن!

توجها نحو بابٍ مزدوجٍ عريض؛ دخلا ثم أغلق الباب. فى كل جزءٍ يُحتمل فيه للعروقِ وجود، كان الدم يتسابق فى جسدها تسابقا عجيبا. أملت لو تمدها الطبيعة بما يساعدها فى خطوتها الأخيرة كما ساعدتها أمس – عندما سقطت مغشيا عليها دون حولٍ منها ولا تخطيط–. كم كانت محظوظة! و كم دعّم ذلك خطتها للدخول و لقضاء ليلتها الأولى فى منزل (آدم أبيض)، و ها هى فى معبده.

تلك المرة لم يكف الاضطراب الفكرى و الشعورى حسها العميق بالجمال. فورا انتبهت للغرفة التى لم تقل جمالا وتناسقا عن باقى أجزاء المنزل، و خاصةً فى وجود البيانو العاجىّ فى إحدى أركانها، و النوتات الموسيقية النائمة فى أحضانه كعروسٍ فى مخدعها. "هنا قلب المعبد، حيث تُنَزَّلُ الأنغامُ وحيا فردوسيا و حيث تُتلى لأولِ مرةٍ!"

– تفضلي بالجلوس! (أفاقها صوته الرخيم من شرودها و سحابة أفكارها. جلسا على كرسيين متجاورين فى صدر الغرفة.)

"ماذا تشربين؟"

– لا شئ. شكرا!

– كوبا من المياه؟

– لا أشكرك!

– حسنا آنسة (كارما)! أتسمحين لى أن أستفسر عما حدث بالأمس؟

– بالتأكيد! كل ما فى الأمر أننى عانيت إرهاقا و.. أشكركم حقا على...

– هل من الممكن أن تتوقفى عن شكرى لاستقبالك و اعتذارك

لإزعاجـى مـن فضلـك!

توترت فى مكانها أكثر بالرغم من أناقة أسلوبه.

"علمـت أنـك لسـت مـن هنـا و لم يظهـر لنـا فـى بحثنا بشـأنك أن لـك أحـدا فـى هـذه البـلاد. صحيـح؟" قالهـا و شـرع يشـعل سـيجارا سـحبه مـن علبـةٍ علـى المنضـدةِ بينهمـا.

- نعم.

- وصلت هنا البارحة فقط. صحيح؟

- صحيح.

- إذن هـل يمكننـى أن أعلم ماذا حدث معك لتصلى بحالة البارحة؟ و أرجـوك لا تكـررى شـكرا أو اعتـذارا؛ فقـط أخبرينـى ما حدث.

أجابـت و هـى تضـم كفيهـا معـا فـوق ركبتيهـا؛ وجههـا لأسـفل و قـد انسـدلت ضفيرتهـا الطويلـة عـن إحـدى كتفيهـا:

- لقـد وصلـت هـذه الناحيـة عـن طريـق الخطـأ بحافلـةٍ اسـتقللتها فـور وصـولى. كان الليـل قـد كسـا و الظـلام شـديد، و بعـد مشـي مسـافة، شـعرت بظـل يتبعنـى. ركضـت حتـى وجـدت حديقتكـم مفتوحـة، فدخلـت علـى الفـور و بعدهـا حـدث مـا تعرفـه حضرتـك.

– نعم .. (كارما) دعينى أسألك و أنا أكبرك ربما بما يكفى من سنوات لأكون والدك؛ ماذا تفعل فتاة فى عمرك فى بلاد لا تعرف فيها أحدا بمفردها؟

بدأت تميز تلك النقطة الفاصلة التى وصلها حديثهما.

– لست صغيرة كما تظن أستاذ (آدم)! أتممت –مؤخرا– عامى الواحد بعد العشرين.

– و ليكن! ليس معنى أن القانون يخولك السفر، أن بمقدورك التواجد وحدك فى بلادٍ كهذه.

– ماذا تقصد حضرتك بـ "بلادٍ كهذه؟!". (قالت فى حنقٍ مكتومٍ مذعور، و كأنه توا أهان شيئا منها.. استأنفت فى هدوءٍ مضطرب):

– إنها بلاد رائعة، و أنا فتاة متعلمة و أستطيع أن أعتمد على نفسى، و أصنع لنفسى حياة كريمة.

– أفهم من هذا أنك جئت للعمل؟

– أستاذ (آدم)! أخشى أنى أزعجك حقا، أو أنى سأقحمك فى تفاصيل لا تهمك فى شئ.

– لقد سقطت أمام منزلى البارحة –فى حالة مضنية– إن كنت لا تنتبهين لذلك! و لعلمك الحياة هنا ليست سهلة كما أراك تعتقدين! أنت شابة صغيرة و لا يسمح لى ضميرى أن أفتح لك الباب و أدعك تخرجين، و أنا على علمٍ بما قد تواجهه فتاة مثلك خارجا فى بلادٍ (كهذه)، و بالمناسبة، ليس بالضرورة أن تعنى "كهذه" شيئا سيئا، لكنها بلادٌ كبيرة و لا تعرفين فيها أحدا! و لا تكررى على مسامعى أنك متعلمة و تستطيعين الاعتماد على نفسك، فالأمور لا تسير بهذه السهولة.

ظل وجهها لأسفل و قد بدأت دمعاتٌ تتجمع فى عينيها. تقدم نحوها برأسه:

"هل جئت للعمل؟ أم جئتِ لشخص ينتظرك.. أو أنكِ تبحثين عن أحد ربما، أو عن شئ هنا؟ أو هى رحلةٌ فقط؟ أخبرينى كى أعرف كيف يمكن أن أقدم لكِ المساعدة."

إذ بتلك الصغيرة أمامه ترفع قبضة إحدى كفيها المضمومين لتفرك عينيها اللتين قد بدأ يتساقط الدمع منهما.

"أنا حقا آسف! لا أقصد إزعاجك أو التدخل فيما لا يعنينى. فقط أحاول المساعدة لأنى أرى بوضوح أنكِ.."

– أستاذ (آدم).. صحيح أنا ليس لى أحد هنا. لم آت لأقابل أحدا و لا أحد ينتظرنى (قاطعته و الدموع تنهمر من عينيها، متقطعٌ صوتها.)

"و لم آت للعمل بشكلٍ أساسىّ أيضا. لقد جئت هنا .... هربا."

– هربا من ماذا؟! (تطلع إليها بإهتمام و ترقب بالغين.)

".. لا تخافى! أكملى مِمَّ تهربين فىً بلادك؟!"

– لقد... لقد اغتصبنى أحدهم.

سقطت رأسها فوق ركبتيها و علت تقاسيم وجهه علامات الألم و التأثر. ربت على كتفها و لم يعُد يدرى ما يمكن قوله لتلك الصغيرة الجميلة، الغريبة الباكية، الهاربة من الشؤم.

– حسنا.. أفهم تماما الآن. و أنا .. آسف حقا!

رفعت وجهها قليلا و قالت بلهجة تملؤها المرارة:

– لا عليك! من حقك أن تعرف بمن احتفظت فى بيتك الليلة السابقة، لربما كنت سارقة أو هاربة من العدالة، أو أنى مجرد معجبة طائشة تطاردك كما نعتتنى سيدة (بلقيس).

استمر رابتا على كتفها، ناظرا بعطفٍ حقيقىّ للدموع المتساقطة من طرفى عينيها.

– مـاذا تقولـين؟! بالطبـع لم أكـن لأفكـر هكـذا بشـأن فتـاةٍ مثلـك، و لا عليـك مـن (بلقيـس) فهـذه طبيعتهـا؛ هـى لا تـزال تحمـل فـى عروقهـا دمـاء بلادهـا التـى جـاءت منهـا منـذ زمـن.

استقامت بظهرها و مسحت بكفيها بعضا من دموعها:

– لا بـأس، لتعذرنـى أسـتاذ (آدم)! أعتقـد حـان وقـت رحيلـى.

– بالتأكيـد أنـت لا تتوقعـين منـى أن أسمـح بذلـك، و إلا فأنـت لم تسـمعى شـيئا ممـا قلـت. اسمعينـى لآخـر مـرة! لأن الواضح أنك فتـاة عنيـدة إلى جانـب كونـك قويـة و لا تستسـلمين. أفهـم تمامـا مـا جـاء بـك هنـا، فدعينـا نتفـق أنه لا يمكنـك أن تخرجـى الآن و تواجهـي بـلادا غريبـة؛ أنـت بحاجـة لتعرفيهـا، لتعـرفي مـاذا سـتفعلين فيهـا بالضبـط، علـى الأقـل لتعرفـى أيـن ستعيشـين؟! و إلى أن يتـم ذلـك سـتبقين هنـا وسـتهتم بـك سـيدة (بلقيـس)، و لا تقلقـي منهـا فأنـا سأسـوى أمريكمـا معـا، أمـا عـني أنـا و أعـرف كـم أنـا ثقيـل الظـل، فـلا أبقـى كثـيرا فـى المنـزل، و أعـدكِ حـين أبقـى فأنـا فقـط فـى هـذا المكتـب و لا أخـرج منـه قـط. اتفقنـا؟!

– أستاذ (آدم) أنا أقدر نبلك و فائق كرمك و لكن..

– هـذه ناحيـة هادئـة يـا (كارمـا). لا أعـرف كيـف هـى البـلاد

التى جئت منها، و لكن هنا لا أحد يبالى بالآخر. ستكونين بأمان حتى تنتظم جميع أمورك، إلا إن كنت تخشيننى وأنا فى عمر والدك!

- حسنا! حضرتك لست فى عمر والدى و لا تبدو كوالد على الإطلاق لكن لا بأس. (قالتها مازحة بابتسامةٍ خافتة على شفتيها المتلئتين و قد بدأت دموعها تجف على مقلتيها.) ".. لكننى متأكدة أنهم على الأقل يبالون بأمرك أستاذ. لا يمكننى أن أتسبب لك بالمشاكل."

قال مستكملا لهجته الرزينة المرحة التى قد بدأ ليخفف عنها:

- لا أعرف لم تصرين على التفكير بطريقة سيئة؟! فقط تأكدى لن يكون هناك مشاكل، و إلا قد جلبت (بلقيس) لي المشاكل منذ زمن!

ردت بضحكةٍ بريئة طوت فيها شعورا عميقا بالألم؛ ظل معها حتى صعدت الغرفة التى أصبحت غرفتها -على الأقل- حتى حين. شعور أطبق على صدرها دفعها لتستكمل سيل بكائها على وسادتها الناعمة رغم نجاح خطتها؛ نبهها أن تلك الدموع التى لم تجف عن ثيابها بعد لم تكن ضمن خطة، لكن كانت بقايا ليلةٍ مشئومة لم تنسها؛ قدمت فيها

obeikandl.com

قربانا عظيما للخروج من مقبرتها الكبرى.. قربانا من جسدها و ضميرها معا فى سبيل روحها و فلسفتها فى الحياة.. ليلة تأمل أن تتطاير بقايا ذكراها مع نسيم فوزها العظيم.. فوز فتح جرحا فى صدرها، و بابا فى عقلها لم تتبين ما وراءه.

انعكس ضوءٌ ساطع من الشمس التى استقرت أمام نافذتها كأم تحرس و تواسى صغيرتها الباكية. نهضت و اقتربت نحوه أكثر فأكثر، حتى انعكس تماما على صفحة وجنتها اليسرى. أدارت وجهها بهدوء فى كل اتجاه ليلامسه ذلك الدفء الذى جفف براعم دموعها، و الضوء الذى ملأ صدرها انشراحا. رفعت يدها و صنعت بأصابعها بعضا من الظل لعينيها اللتين لم تتحملا نور النجم المبتسم لها فوق جنةٍ كاملة. سحبت حقيبة يدها من جوار السرير قبل أن تفتح الباب و تطوى السلالم ركضا، كطفلٍ نحو أمه القادمة من بعيد.

— إلى أين تذهبين؟!

— سأشترى بعض الأغراض من المدينة.

— و هل تستطيعين الذهاب وحدك؟!

— نعم سيدة (بلقيس)؛ مررت هناك بالأمس. سأستقل حافلة؛ لا تقلقى!

– ألـن تتنـاولى الفطـور؟! (قالـت بصـوتٍ عـالٍ لتسُـمِعَ التـى ركضـت نحـو الخـارج فـى عجلـةٍ و تلهـف.)

– شـكرا! سـبق و قدمـت لى الكثـير. (ردت بصـوتٍ مماثـل فـى الإرتفـاع و اسـتدارت علـى عجلتهـا الطفوليـة.)

"عرفت ذلك لحظة رأيتها؛ تلك الفتاة منفصمة تماما!"

راحـت تجـول بـين المـروج التـى رأتهـا مـن أعلـى. ذاتهـا التـى هرولـت بينهـا قبـل ليلـةٍ و كان يغطيهـا الظـلام، و لكـن قـد حـل مـكان الظـلام نـور، و مـكان الـبرودةِ دفء و مـكان رعشـة الخـوف قشـعرةُ أمـلٍ و حيـاة و بسـمة طفوليـة.

الفصل السادس

فتحت عينيها نظرةً نصف ناعسة يملؤها الفزع و الصدمة عبر حجرة ضيقة من الطوب الأحمر. لا هواء يدخلها و لا نور و لا دفء؛ فقط خيوط دقيقة من الضوء انسلت عبر فراغات ألواح الخشب التى ثبتها أحدهم بعشوائية – ليسد المدخل–. نهضت عن الأرض الخشنة و أدخلت أصابعها عبر الفراغات، وبقوةٍ ناعمة من كفها سحبت إحدى الألواح نحو صدرها بغية نزعه؛ حاولت ثانيةً بكفيها دون فلاح، ثم بكلتي يديها –و بكل ما بداخلها من قوة–، ثبتت قدمها أسفل الباب البالى و شدته حتى انتُزِعَ بين ذراعيها. راحت تنزع اللوح تلو الآخر فى إصرارٍ و نفاذ صبر. كلما أزيل لوحٌ ظهر لها الضوء وضّاحا، حتى ظهر قرص الشمس مقابلها كأنهما على موعدٍ. أرخت أهدابها و تنشقت النسيم الرطب داخل رئتيها العطشيين، لكن ما لبثت و نفضتها فور انتباهها للمشهد أمامها... الغرفة فوق قمة جبلٍ من الصخور الحادة، فى منتصف البحر.

اتسعت حدقتاها منفتحتين دون سابق إنذار على سقف غرفتها الرائعة. زفرت ارتياحا و هى تمرر يديها عبر جذور شعرها: "الخامسة صباحا!". طلعت نحو نافذتها لتشبع من هوائها الآمن. التفتت بنصف وجهها وابتسمت للإسطوانات فوق المدفأة فى مؤخرة الغرفة؛ تتذكر كيف نامت على أنغامهن و لم تشعر! تحركت خطوة باتجاههن لتستمع إلى واحدة لم يسبق أن سمعتها قبل يومها الذى مر –حينها أدركت أنها و قطعا أخرى من موسيقاه لم تصل بلادها–، لكن ما كادت خطوتها تكتمل إذ سمعت صوتا عبر النافذة. تسمرت مكانها وبكل ما لديها من حواسٍ أنصتت؛ كان آتيا من خلف النافذة السفلية.. مكتب (آدم أبيض) أو معبده الفنى – كما تسميه–.

صوت أنغام تتدفق بسلاسة كماء النهر. أنغام هى أجمل ما يمكن للأذن أن تسمع؛ جمالها يفوق قدرة النفس البشرية على الخلق و الحواس على الاحتمال. خلعت ثوب نومها البرئ و التقطت ثوبا بلون السكر؛ نُقِشَت نهايته عند الركبتين باخضرار الزرع و ورودٍ برتقالية و شُدَّ على خصرها بحزامٍ ذهبىٍّ رفيع. دون النظر فى مرآة، فتحت الباب و هبطت السلالم فى خفة شديدة كما فراشةٍ منتشية برحيق زهرةٍ نادرة. وقفت أمام الباب المزدوج بعينين مغمضتين و تعبيراتٍ من الانفعال و النشوة

الروحانيـة، بقشـعرةٍ علـى جلدهـا و رنـةٍ دافئـة فـى صدرهـا. تلـك لحظـةٌ كانـت روحهـا أخـف مـن ريشـةٍ سـقطت مـن السـماء، تمامـا كحـال (آدم) و بنيـه. لحظـاتٌ مـرت؟ دقائـق أم سـاعات؟ (كارمـا) أبـدا لم تعـرف؛ كل مـا عرفتـه أن –و منـذ تلـك اللحظـة– كل مفاهيمهـا عـن الزمـن قـد تغـيرت.

– كارما! كارما!... كارماااااا!

– نعم سيدة (بلقيس)! ماذا هناك؟!

انفتح باب المكتب:

– صبـاح الخـير أيتهـا السـيدتان! لِمَ تصرخـين يـا (بلقيـس)؟!

– لم أكُن أصرخ؛ فقط أحاول إفاقتها من غفوةٍ عميقة!

– لم تغفين فـى الصالـة يـا (كارمـا)؟! هـل غرفتـك غـير مريحـة؟ (تحـرك نحـو طاولـةٍ أنيقـة فـى إحـدى أرجـاء الصالـة الفسـيحة و تبعتـاه.)

– لا! سـيدة (بلقيـس) تمـزح؛ لم أكـن نائمـة. فقـط كنـت أسـتمع إلى عزفـك سـيد (آدم).

– نعم، فى أحلام اليقظة!

ضحك و وجهه نحو الطبق الذى وضعته أمامه (بلقيس) –بينما قالت تعليقها السابق–، و على ملامحه دهشة من حال الفتاة الذاهلة كأن أحدا ضرب رأسها بمطرقة.

– عفوا! (قالت (كارما) و هى تحرك ناظريها بينهما فى عدم فهم.)

– كلى جيدا يا فتاة! (وضعت (بلقيس) أمامها طبقا.)

– ها؟! نعم! شكرا.. سيدتى!

نظرت (بلقيس) إلى (آدم) الذى بادلها النظرات حافظا ضحكه الوقور هادئا. قال موجها حديثه لـ(كارما) بعد ذهاب (بلقيس):

– هل أنت –حقا– بخير؟!

– تلك المعزوفة كانت رائعة!

– هل سمعتِها؟

– استيقظت عند الخامسة؛ سمعتها فنزلت على الفور.

– الخامسة! هذا يعنى أن عزفى أيقظك عندما بدأ..!

– لا! أيقظنى شئٌ آخر.

– و لِمَ لَمْ تدخلى عقب انتهائها لتخبرينى رأيكِ؟

– وددت ذلك، لكن جاءت سيدة (بلقيس) و فعلت ما فعلت فخرجت حضرتك. (صاحبت كلماتها بضحكة صافية.)

– نعم.. ولكنى أنهيت عزفا منذ ما يزيد عن ساعة!

– و لكنى كنت أسمعها حتى نادتنى سيدة (بلقيس)..!

– تقصدين حتى انقضت عليك (بلقيس)!

– لا يهم! .. حقا أستاذ (آدم) كنت أسمعها حتى دقائق!

– .. أهذا يعنى أنها أعجبتك؟

– أعجبتنى! هى أقصى ما يمكن للأذن البشرية أن تتحمل من نشوة سمعية.

طالت بينهما نظرة و كأن كلا منهما يحاول أن يغوص فى أعماق الذى أمامه. هى تتأمل ذلك الذى تؤمن كثيرا أنه ليس بشريا، و هو يحاول أن يجلى دهشةً و فضولا بشأن الفتاة الغريبة حالا و نعتا.

– ماذا درستِ (كارما)؟

– الأدب و القصة.

– مثير! .. كيف قضيتِ يومك الأول؟ أخبرينى!

obeikandl.com

– تنزهت صباحا فى الناحية، ثم أخذت جولة فى المدينة حتى بعد الظهر. بعد الغداء، استمعت إلى موسيقاك حتى غلبنى النوم.

– و ما رأيك؟

– لا يمكن للحروف أن تصف روعة حرفٍ واحدٍ من موسيقاك أستاذ (آدم) و بالتأكيد أنت تعرف ذلك.

– شكرا! لكنى لم أَقصد موسيقاى. قصدت الناحية..و كذلك المدينة؛ هل أعجبك؟ هل تعجبكِ بلادنا بشكل عام؟

– أنظر فى كل ما فيها فأرى كمالا يجعلها منزلا للإله.

رفع حاجبيه –و هو يلتقط قطعة من الخبز فوق طبقه– تعجبا من تلك الصغيرة التى تؤكد مع كل قول و فعل و انفعال أنها غريبة فعلا. قالت لتقطع صمت لحظاتٍ كادت توترها:

– أتعرف أستاذ (آدم) ؟! لقد استغليت وجودى فى المدينة و اطلعت على إعلاناتٍ كثيرة، و.. كذا اشتريت جرائد كثيرة، و سأبدأُ فى البحث عن وظيفة تناسبنى. انا متحمسة جدا و أشعر أن كل شئ سيكون رائعا.

– جيد جدا! يبدو لى أنك تستغلين وقتك جيدا هنا.

– جئت هنا لأحظى بحياة، فلم يسبق و حظيت بواحدة.

خرج عقب الفطور و خرجت فى نزهتها الصباحية تسير فى هذه الأرض الطيبة، عندما عنت لها صورة من الماضى.. لفتاةٍ تمشى فى أرضٍ أكلها القحط و الزلط؛ من فوقها سماءٌ باهتة و قرصٌ شاحبٌ يغطيه الغيم و الضباب؛ فتياتٌ و نساء وضعن أجمل ما فيهن فى جيوبهن، و رجالٌ فى عيونهم نظرات الشيطان. انعقد حاجباها و غصّ حلقها لمجرد عودة تلك الصورة و ذلك الشعور. نظرت حولها فى ارتياحٍ و امتنان لمّا تراءى أمامها القرص اللامع و السماء اللجينية.

★★★

قضت وقت الظهيرة بأكمله تجرى اتصالات مع الأرقام فى الصحف؛ كانت معظمها وظائف كتابية و سكرتارية. أعادت عدة التليفون مكانها بجوار السرير، و ضغطت بيديها فوق عظم كتفيها و هى تحرك رقبتها فى كل اتجاه: "هذا يكفى لليوم."

نزلت الطابق السفلى و ذهبت إلى المطبخ:

– مرحبا!

– مرحبا! هل شعرت بالجوع أخيرا؟!

— لا، شكرا! سيدة (بلقيس) أود أن أسألك شيئا.

— تفضلي.

— معروف أن الفنانين يختلون معظم أوقاتهم بأنفسهم فى بيوتهم، يطلبون الوحى و الإلهام لفنهم، لكن ..أستاذ (آدم) يقضى تقريبا كل وقته بالخارج؛ أعنى أن هذا ما لاحظته خلال يومي تواجدى؛ بالطبع قصدى هو .. أخشى أن لهذا علاقة بوجودى.

— أستاذ (آدم) يعمل كثيرا فى المنزل. لكنه مشغول منذ أيام بحفله الضخم الليلة فى أوبرا المدينة، و لا أعلم كيف سيكون الحال الأيام القادمة؟

— هل أنتِ جديدة؟ (آدم أبيض) سيحيى اليوم حفلا فى الأوبرا! و أنا هنا! و ليس لى خبر! لمَ تعاملوننى بهذه الطريقة؟! (خرجت مسرعة و تبعتها (بلقيس) بعينين متسعتين من الاستغراب.)

وصلت حتى أول السلالم ثم استدارت و عادت راكضة إلى المطبخ:

— متى الحفل سيدة (بلقيس)؟

— الليلة يا فتاة!

– أقصد أى ساعة؟!

– الثامنة.

★★★

خرجت تغطى جسدها بروب الاستحمام و شعرها المبلل متفرق عن بعضه فى سدائل حرة، و لأول مرة.. تقف أمام الخزانة تتساءل ماذا ترتدى: "هل ألبس الأسود القصير؟ ، أو ذلك الأزرق الطويل؟ ، أو ربما تلك الكنزة مع هذه التنورة؟" أول مرة تقف أمام المرآة تتفرس تفاصيل وجهها الجميل باهتمام لتتزين، و لا تشعر أن أنوثتها إثم و جمالها خطيئة يتوجب عليها اخفاؤهما أبد الدهر؛ لأول مرة.. هى أنثى دون خوف.

كانت تتنقل بين قطع الغرفة –من الخزانة إلى المرآة– فى سعادةٍ سخيّة، وسطَ خلفية صوتية من موسيقى (آدم أبيض) تنبعث عن اسطوانة فضية اللون.

الفصل السابع

نزلت من سيارة الأجرة أمام قبة المبنى العريق. شعرت أمام ضخامته بصغر حجمها على الأرض، و أمام فخامته بالخشوع وهيبة الفن. هو بالنسبة إليها مكان لا يقل قداسة عن دور العبادة.

و أمام إحدى نوافذ التذاكر:

– أريد تذكرة لحفل (آدم أبيض) من فضلك.

– عفوا يا آنسة! قد نفدت التذاكر منذ أيام.

تراجعت بضع خطوات فى شئ من خيبة التوقع؛ تحكم يديها على طرفى ياقة معطفها الأسود و شعرها يتطاير فى هواء أول الليل المنعش. أشارت ساعتها إلى السادسة . "لابد و هناك طريقة، ليست (كارما) من تعترض طريقها تذكرة!" علمت من أحد أفراد الأمن المكان الخاص ببروفات الحفل. وعند الباب المغلق، وقف فردا حراسة؛ شعرت بإمكانية منطقية كبيرة ألّا يسمحا لها بالدخول، لكن كعادتها اقتربت فى ثقة:

– هنا بروفات (آدم أبيض). صحيح؟

– نعم.

– هل يمكننى مقابلته؟

– هل حضرتكِ من أفراد الفرقة أو أحد القائمين على الحفل؟

– أنا أعرف أستاذ (آدم) شخصيا، و فى الحقيقة هناك ضرورة لأقابله.

– " اعذرينا آنسة! و لكن هذا ممنوع تماما أثناء البروفة السابقة للحفل المباشر.

– و متى تنتهى البروفة؟

– بعد ساعة على الأكثر.

– شكرا. ...

"هلا أخبرتنى عن مكان دورة المياه من فضلك!"

خلعت معطفها و استدارت أمام المرآة؛ تنظر لنفسها فى الثوب الأسود القصير الذى تمسّك بتقاسيم جسدها فى غرامٍ شديد، و لف ذراعيها بقماشه الرقيق حتى كوعيها. وقفت تتأمل رضا فى عينيها لم تره قط. صحيح هى لم تصل إلا منذ يومين فقط، و أن نقودها التى حضرت بها من بلادها

لم يعُـد يتبقـى منهـا الكثـير، و لم تحصـل علـى وظيفـةٍ بعـد.. "وظيفـة!" ابتسـمت لنفسـها فـى المـرآة بـبراءةٍ مغريـة لتذكرهـا موعـدا منسـيّا كان فـى الخامسـة مـع أحـد أصحـاب الإعلانـات. صحيح هـى لم تُغمس كليا فـى بـركات (آدم أبيـض)، و لم تتشـبع مـن فـن و روحانيـة هـذه البـلاد بعـد، لكنهـا تقـف هنـاك أنثـى .. حيـة .. حـرة .. آمنـة، و هـى أشـياء لم تشـعرها مـن قبـل.

أخـذت معطفهـا و خرجت سـريعا كى لا يفوتهـا الحفل كما ذاك الموعـد. حملـت معطفهـا بـين يديهـا و وقفـت تنتظر خروجـه؛ تتأمل الباحـة الواسـعة أمامهـا، نافـورة مياه تحرسـها تماثيـل الآلهة، هؤلاء الخلـق الأنيقـين، و مـن فوقهـا سمـاءٌ عامـرة بالنجـوم و قمـرٌ ناصـع:

"آهٍ يـا أرضـي الجديـدة! آهٍ يـا ميـلادى! حيـث لـن أبـرح أبـدا مكانـى، حيـث لـن أمـوت إذ أمـوت.. فحيـاة الـروح لا تفنـى بالمـوت. يـا جمـال العمـر و مـا بعـد العمـر فيـكِ يـا أرض النـور! هنـا... حيثمـا تشـرق الشـمس."

تحركـت خطـواتٍ قليلـة إلى الأمـام بعيـدا عـن العمـود الخـزفي الـذى تسـتند عليـه لتراقـب شـيئا أثـار انتباههـا، لمحتـه عـبر بـاب فـى مبنـى مقابـل ينفتـح و ينغلـق بدخـول الـرواد و خروجهـم منـه. عـبرت إليـه و دخلـت مـع الداخلـين.

تنقلت بعينيها في انسجامٍ و تأثر من فرط روح الفن والجمال في اللوحات على الجدران، و التماثيل في الوسط و الأركان. في الطابق العلوى، وقفت أمام لوحةٍ و توقف معها الزمن و المكان و كل ما يدور حولها. لوحةٌ لامرأتين قد تجمع الخلق حوليهما كالوحوش؛ إحداهما ناضجة تحتضن شابة يافعة. دققت في نظرات المرأتين، فيما بعيني الأم –كما تصورتها– من صدمةٍ و ذعر و عيني الشابة من خوفٍ و نقم، في يديهما الملتفتين حول بعضيهما بقوة. ظلت مقلتاها متعلقتين بتلك الوجوه في اللوحة طويلا، حتى و هي تتوجه نحو غيرها، لحظةَ لمحت شيئا آخر على الحائط أثار لبّها.. ساعةً تشير إلى ما بعد السابعة. "الحفل!" طلعت تركض من المعرض كسندريلّا الناسية وعداً الساهية عن موعدٍ.

– هل خرج أستاذ (آدم)؟

– منذ أكثر من عشر دقائق.

– و أين ذهب؟

– بالطبع يستعد للحفل و لكن ليس لدينا علم أين يكون الآن.

راحت تلف أرجاء الأوبرا بحثا عن أثرٍ له. جلست على أحد المقاعد و قد بدا التعب بوضوح على وجهها الفتىّ؛ على

كل حال ليست المرة الأولى منذ قدومها يخطف الفن أنفاسها و روحها و شعورها بالوقت. العد التنازلى للحفل قد بدأ، وهؤلاء المارون أمامها يتزايدون؛ تسمعهم يتهامسون؛ تعرف أنهم الحاضرون. قامت و سارت وسط الجموع و فى نيتها أن تبذل آخر ما بقى من محاولة. وقفت عن بعد لدى رؤيتها البوابة الحديدية البيضاء و أطيافا كثيرة تمر منها إلى ساحةٍ واسعة؛ زخرت بمقاعد قرمزية من القماش الدافئ تحت غطاءٍ مباشر من سماءٍ بذات اللون. فى صدر الساحة مسرحٌ يقدم نفسه فى حضورٍ لافت؛ تعتليه نجومٌ إيقاعية و وترية. فى مقدمتهم بيانو أسود لامع، و مقعدٌ أنيق منفردٌ بنفسه هو بالطبع له، و قليلٌ آخر من الآلات كالكمان و الناى. نظرت بشغفٍ شديد فى عينيها و شعورٍ غريب فى صدرها نحو كل ذلك الذى أمامها والذي هى جزءٌ منه، و إن كانت لا تحمل تذكرة العبور. "يا إلهى! هل أستطيع تحمل كل هذا الجمال؟!"

هى تسكن منزله منذ يومين. هو لا يعلم ما يمثله لها من معانٍ فى هذا الوجود. تغادر روحها أضلاعها و تحلق إذ تسمع موسيقاه، لكنها المرة الأولى تشعر بذلك الشعاع من العاطفة و تلك اللذعة من الانفعال. كأنها أمام هيبة المسرح و فى خشوع مناخ الأوبرا و وسط حديث الحاضرين، استفاقت أن كل ما يحدث

معها ليس حلما، بل أنها تسكن بيت ذلك الذى جاءوا من أجله جميعا، و جاءت هى من مكانٍ أبعد منهم أجمعين. شعرت برعشةٍ من البرد و مشاعر أخرى يصعب تعريفها تسرى فى جسدها و روحها معا. تراجعت إلى الوراء و عيناها معلقتان بذلك الكرسى الفارغ أمام البيانو. جلست على مسافةٍ ليست ببعيدة عن البوابة التى سُدَّت بالكامل و سُدَّت الرؤية عبرها مع المرور، و عندما علت الموسيقى التى تعرفها، بل تميزها جيدا بين كل حروف النغم و أصابع البيانو و أوتار الآلات، علت معها الرجفة فى جسدها و الدقات فى قلبها، و صاحبتهما دمعة من عينيها.. دمعة لا تشبه واحدة مما ذرفتها أبدا.

★★★

انتظرت طويلا قبل أن يصل و يجدها تستند إلى سيارته:

– (كارما)!

استقامت فى وقفتها، ضاغطة أصابعها على المعطف بين يديها.

هل حضرت الحفل؟!

– يمكنك قول ذلك.

فتح لها باب السيارة ثم صعد و انطلقا.

– هل استمتعت؟

– كثيرا، أكثر مما كنت سأستمتع بموعد العمل الذى نسيته على أى حال.

– هل كان لديك موعد عمل؟

– اليوم؛ لكنى فقدته لحضور الحفل.

– لا عليك! من الجيد أنك ذكرتنى؛ أعرف صديقا لديه دار نشر و يريد من يشغل وظيفة فى المراجعة و التدقيق. ظننت ذلك – ربما – مناسبا لك و دراستك. ما رأيك؟

– المهم أن أكون أنا مناسبة لذلك.

– أنا متأكد.

خلا طريقهما من الحديث عدا تلك الكلمات التى كان ينطق بها بين الحين و الحين: "الطريق ليس مزدحما الليلة"، "لقد اقتربنا" و "ها قد وصلنا"، و على الأغلب كان يحدث نفسه بها، كما لم تنطق (كارما).

– هل أطلب منكِ طلبا؟

– بالطبع!

obeikandl.com

– سأذهب الآن فى سهرة عمل مع مجموعة من الأصدقاء الفنانين. هل إن طلبت منك أن تتناولى عشاءك ثم ترتاحي بعدها –لأنك تبدين مرهقة– ستفعلين؟ أم على ان أدخل بنفسى و أطلب من (بلقيس) أن تشد أذنيك و أنا أعرف أنها تود ذلك كثيرا؟ (ضحكا معا بهدوء)، ثم إستأنف: أنا جاد هى تقول أن لديك عداوة مع الطعام. هل تعديننى بما طلبت؟

– أعدك.

– جيد! تصبحين على خير.

بعد ساعاتٍ قليلة كانت فى ذات الغرفة المشؤومة؛ تحطم الألواح جميعها لتنتهى فوق قمة الجبل المرعب. قامت وأنفاسها المكتومة ناظرة إلى الساعة بجوارها "الخامسة!". اقتربت من النافذة على أمل أن تسمع صوتا يأتيها عن أسفل، لكن ما من صوتٍ هناك. التفت فى روب رماديٍّ طويل من القماش السميك و هبطت السلم فى هدوء. فى الطابق السفلي، لا ظل و لا صوت من خلف الباب العريض المزدوج، فقط خيوط بيضاء من آخر الفجر تسللت إلى الأرجاء عبر النوافذ الزجاجية الكبيرة. جلست تفرك جبهتها و أول شعرها المفرود على ظهرها فى غجرية

ناعمة. ثمة شئٌ فى الداخل يكاد يعبث بكل الأشياء، فى عمق الأعماق، فى أصل الأصول؛ باب فى عقلها انفتح ذات مرة على وسادة تبللت بأمطار العيون؛ يقابله تيارٌ غربىّ من الدقات و الرجفات؛ تسترهما سماءٌ غائمة من الكلمات العابثة، التى نزين بها إراداتنا و نمحو بها خوفنا، لنخفى حقائق قد تدمرنا، أو فى أقل الخسائر.. تغيرنا، تغربنا عن نفوسنا التى نعرف. انتفضت فى مكانها لدى انفتاح الباب الضخم أمامها:

— (كارما)! أنت تفاجئيننى كثيرا اليوم... كيف حالك الآن؟

— بخير!

مرت لحظات قليلة من الصمت الحافل؛ كان لكل منهما ما يقوله للآخر. قطعتها ببساطة:

— أستأذنك! سأعود لغرفتى.

— ... فى حال لن تعودى للنوم أو لست مشغولة بشئ، هل يمكننا تناول الفطور ثم التحدث قليلا؟

— بالتأكيد! لكن أعتقد أن حضرتك أيضا بحاجة للراحة.

— لا أعتقد ذلك. لم يسمح لى صديقى بالقيادة دون نوم، لذا نمت عنده.

– إذن سأبدل ملابسى و أنزل حالا.

– و أنا أيضا.

بعد الإفطار كانا جالسين على كرسيين متقاربين فى غرفة مكتبه؛ أمامهما كوبان من القهوة الإيطالية. بدأ الحديث بأسلوبه الأنيق الواعى:

– (كارما).. أنت فتاة قوية جدا. أتعلمين هذا؟

– حقا! كيف؟

– جئتِ من بلاد بعيدة تاركة كل شئ خلفك لتبدأى من جديد.

– أو أننى غبية جدا لآتى إلى بلاد لا أعرف فيها أحدا، فينتهى بى الأمر دخيلة فى بيت أحدهم.

سكت و نظر بمقلتيه الذهبيتين الهادئتين إلى الأرض ثم قال:

– لستِ غبية (كارما)، و أنا على يقين أنك لم تأتي هنا على سبيل الصدفة.

اختفى اللون عن وجهها و أطرافها. (آدم) يعلم كل شئ! لقد شكت بذلك لحظات نقضت كثيرا من راحتها منذ مجيئها. نعم خطتها منفذة بإتقان و واقعية تمكنها فى أية لحظة من

إثبات إدعاءاتها، و لكن ماذا عن رجل فى مثل عمره تطارده الفتيات كما أخبرتها (بلقيس)؟ أمن المعقول ألا يشك بأمرها؟! ماتت الحروف على شفتيها لحظات و هى تتطلع أمامها دون النظر تجاهه.

"حتى إن كنت لا تدركين ذلك، لكنك قصدت فى داخلك بلادا غريبة لا تعرفين فيها أحدا و لا أحد يعرفك، حيث يمكنك أن تنسى فيها ذاتك القديمة و كل ما حدث معها دون مجالٍ لذكرى أو نظرةٍ للوراء، و تعيدين رسم حياتك على صفحةٍ بيضاء."

كادت تصرخ ارتياحا فور فهمها ما يقصد. هو يحدثها على أساس من تلك المأساة المفتعلة التى حدثته عنها يومها الأول بدموع حقيقية على عكس كذبتها. على أى حال لم يكن مخطئا؛ هى لم تأت على سبيل الصدفة، بل تعمدت ترك كل شئ وراءها، كل شئ... كى لا تترك مجالا للعودة إلى الوراء، إلى ذلك الجحيم الذى كانت تحيا به.

"أعلم أن ما مررت به ليس هينا، لذا ثقى بى إذ أخبرك أنك قوية جدا لإصرارك أن تخرجى من أزمتك، و قرارك أن تكملى حياتك على هذا الثبات. من الطبيعى

فـى البدايـة أن تختـبرى المزاجيـة و الإضطـراب، بـل و النـدم أحيانـا؛ أنـتِ جديـدة علـى المـكان و المنـاخ؛ ليـس لديـك أصدقـاء و لا تعرفـين أحـدا، ولكـن أنـا متأكـد لـن تلبـث أيـام أخـر أن تمـر حتـى يكـون كل شـئ علـى مـا يـرام، تمامـا كمـا تأملـين."

— ليس صحيحا.

— عفوا!

— لسـت غريبـة علـى المنـاخ أو المـكان؛ أصـلا أشـعر أنـى أنتمـى إلى هنـا مـن قبـل حتـى أن آتـى إلى الأرض. أسـتاذ (آدم).. أريـدك أن تسـاعدنى. (تحدثـت بصـدق و ضعـف بالغـين.)

— ألا تعين أن هذا ما أحاول فعله؟!

— لقـد عشـت عشـرين عامـا فـى بـلادى أمقـت كل مـا هـو محيـط، و نظـرات النـاس الفاسـدة للحيـاة، كمـا هـي لـكل شـئ. رغـم ذلـك علمـت مـا أريـد. علمـت فـى داخلـى أن الحيـاة بئـر عميـق أود أن أنهـل منـه حتـى النهايـة. شـعرت أن مائـة مـن الحيـاة فـى هـذا الكـون لـن تكفينـى لـتروى ظمـأى و ترضـي فضـولى تجاهـه، و أن تلـك الحيـاة هـى لغـز مثـير، لم أفهـم أبـدا كيـف للبعـض أن يسـأمه، و سـرٌ عظيـم فكيـف ينحطـون بـه! لكـن الآن .. بـت أخشـى أنـى أضعـف و أصغـر مـن أن

أتحمله. أنا بحاجة لتعلمني كيف أحيا وسط هذا الكمال، و أن أتحمل كل هذا القدر من الجمال. أشعر أحيانا أن روحي تكاد تحطم رئتيّ و أن جسدى لم يعُد يتسع لها.

كان ينصت إليها بروحه و كامل حواسه، تماما كما تنصت هي إلى موسيقاه.

- لمَ لا تطلقين عنانك ببساطة؟! فقط انتزعي روحك من بين أَشلاء الذكرى و اغرسيها حيث تريدين. و لتعلمي أن ذلك الذى ترينه من جمال و كمال ربما غيرك لا يراه! أو أنه يراه و لكن على غير صورة! لكن هذا لن يعنى أنه غير موجود؛ هو موجود لأنك ترينه و تشعرينه، لذا لا يمكنك بعدها أن تستسلمى لجزع، أو تنتظرى أحدا كى يريك ما تريدين، فوحدك القادرة على رؤيته بالصورة المثالية التى ترغبين.

- لكنى كلما تحررت من قيد حتى ظننت أنى أملك روحى بين ثنايا كفى، وجدت نفسى أسيرة لقيد جديد. هناك حاجز ما بينى و بين هذا الجمال، حاجز بينى و بين ضوء الشمس.. بينى و بين روحى. أخشى أنى أصبحت أحيانا ألتمس الأعذار لهؤلاء كيف يعيشون كل هذه المادة، و هذا الجفاف الفكرى و الجفاء الروحى و الجحود بها؛

أفكر كم هو أسهل لهم أن يُؤسَروا فى جسدهم البالى، أدنى للوحل الذى خُلِقوا منه.

– لم كل هذه العجلة و نفاد الصبر(كارما)؟ اصبرى قليلا! ربما لم تري كفاية.

– رأيت من الجمال ما يفوق قدرتى البشرية!

– لم أقصد الجمال.

ظلت تستمع صمت حديثه لحظات بترقب شديد للحرف التالى من كلماته:

"إن حُبِستِ فى الظلمة لمدة من الزمن، ثم فجأة انفتحت نافذة صغيرة و دخل منها شعاع قوي، ماذا تفعلين؟"

– سأغمض عينىّ بشدة و أحميهما بيدى من الشعاع.

– صحيح! و ستعتقدين أن عينيك ليستا على قدرة لتحمل النور، و لكن ماذا بعد دقائق؟ و ماذا بعد ساعة كاملة؟ سيمر الوقت حتى ليتحمل ناظرك الشعاع كاملا؛ بعدها سيدرك أن ذلك النور ليس سوى خيط رفيع من ضوء الشمس، بالكاد أصبح كافيا له.

أشرقت عيناها حتى انفرجت شفتاه كاشفة أسنانه البيضاء المصطفة بدقة، لما لاحظ من أثر لكلماته عليها.

"آمل أن ليس لديك ما يشغلك الليلة يا (كارما)!"

— " لِمَ؟ ماذا سنفعل؟!

— سنفتح لكِ النافذة أكثر.

★★★

قبل الظهيرة أوصلها دار النشر لتبدأ عملها. تحدثا طوال الطريق عن الطبيعة و الشوارع و المنشآت، عن حضارة البلاد وثقافتها. كانت شغوفة كثيرة الأسئلة عن كل ما يمران به و كل ما يعطيها من تفاصيل.

— هذا هو الدار. انطلقي و لترفعي رأسي يا فتاة!

— لا تقلق! مع السلامة.

التفتت إليه قبل أن تترجل: "ألن تخبرني أين سنذهب الليلة؟"

— لا.

ضحكت و أردفت متسائلة:

– على الأقل لأعرف ما على ارتداؤه، أو تريد أن أسبب لك الإحراج ؟

– ليس لدى مشكلة فى هذا.

بعد انتهائها خرجت تحمل بيديها كتبا و أوراقا للعمل، بروحها كثيرا من الغبطة، و بقلبها فائضا من الشغف لكل الأشياء. فى طريقها سمعت كلماته فى أذنيها بشأن كل ما تمر به؛ ترى تعبيراته يحكى لها التاريخ و التفاصيل، كيف كان و كيف أصبح. لم تعرف كم من المرات كانت قد استرجعت حديثه لدى ترجلها أمام سور الحديقة.

openkandl.com

الفصل الثامن

نزلت عن السلالم ترتدى سترة من الجينز الأزرق فوق قطعة سوداء منقوشة بالورد الأحمر الدقيق، أخفت طولها داخل تنورة سوداء حتى ركبتيها و أسدلت موجات شعرها -كعادتها- فوق ظهرها.

- لا أعرف أين نحن ذاهبان على وجه التحديد؛ فهل.. هذا مناسب؟

- رائع! هيا بنا!

فى الطريق سألها عن مقابلة النهار. حدثته تفصيلا بسعادة واضحة و امتنان عن العمل الذى هو فى عقر شغفها؛ كم سيساعدها على فتح آفاق أمام عقلها و روحها! و هو ما تتوق إليه فى حياتها، و عن ارتياحهها تجاه إمكانية عدم التقيد بمكان أو مواعيد للعمل، شرط الالتزام بمواعيد التسليم. بقي هو رافضا إخبارها وجهتهما.

– منـزل مـن هـذا؟ (سـألته بينمـا وقـف يفتـح لهـا بـاب السـيارة)؛ فـى الوقـت ذاتـه انفتـح بـاب المنـزل و ظهـر منـه رجـل و امـرأة جـاء صوتهـا عاليـا: "لقـد وصـل (آدم)!"

أمسـك (آدم) بيـد (كارمـا) و دخـلا. اسـتقبلهما الرجـل الذى بدا أنـه صاحـب المنـزل و قادهمـا نحـو صالـون فخـم يجلـس بـه رجـلان آخـران؛ أحدهمـا شـاب والآخـر فـى مثـل عمـر (آدم) تقريبـا. عرّفهـا (آدم) كإبنـة أحـد أصدقائـه القدامـى و بـدأ يعرفهـا بالرجـال الثلاثـة و المـرأة، التـى بـدت فـى أضـواء الصالـون فائقـة الجمـال و الحيويـة رغـم أنهـا لا تقـل عـن الثلاثـين؛ ترتـدى فسـتانا فضفاضـا متوسـط الطـول، ملونـا برسـوماتٍ و وجـوه غـير محـددة حتـى علـى أكمامـه التـى تخطـت الكوعـين، و رفعـت شـعرها الناعـم فـى كعكـة أنثويـة غـير مرتبـة. عرفـت (كارمـا) أنهـا رسـامة تدعـى (سـارة). الرجـلان الآخـران أحدهمـا صديـق (سـارة)، أو قريبهـا؛ لم تبالـي (كارمـا) كثـيرا فـى تعريـف (آدم) بـه، فـى حـين سـبقته فـى تعريفـه الشـاب قائلـة: "(دانـى)؛ أسـتمع إليـه منـذ سـنوات و أعشـق صوتـه!"

ابتسـم الشـاب الطويـل النحيـف ذو اللحيـة الخفيفـة و شـكرها، بينمـا قادهـا (آدم) للجلـوس و جلـس جوارهـا. صاحـب المنـزل صديـق مقـرب لـ(آدم) كمـا لكثـير مـن الفنانـين. يعمـل فـى مجالات مختلطـة مـن الفـن كالإخـراج و الإنتـاج السـينمائى و المسـرحى. على

الفور ميزت (كارما) بعضا من أعماله التى انفعلت بها كثيرا، فعبرت له عن ذلك أيضا.

– أين تجلس يا (آدم)؟! (قالت (سارة)).. "لا يمكنك أن تنسى لأنك تصطحب تلك الجميلة الصغيرة!"

نهض فى وقاره مبتسما ثم جلس على البيانو فى أحد الأرجاء. فهمت (كارما) أنهم يبدأون تجمعاتهم الفنية و الأدبية بعزف (آدم أبيض). كانت المرة الأولى تراه بعينيها عازفا. بدا كأنه فى عالمٍ آخر، و كانت كعادتها تستمع إلى الموسيقى بحاسةٍ مجهولةً فى أعماقها، فتوشك قدماها أن ترتفعا عن الأرض، لكن تلك المرة كان عليها البقاء قليلا.. تراقب هذا الحىّ الذى يعزف بروحه لا بأنامله.. تتأمل الحميمية بين أصابعه و أصابع البيانو، كأنهما خُلقا ليتلامسا، حتى وجدت نفسها تحسدها. انتهى العزف بعد وقتٍ لم تحدده، فوقفت (سارة) و صفقوا جميعا، و هى معهم؛ تبدو لنفسها غريبة، فتلك أول مرة تستمع للموسيقى ولا تكون –بكل ما فيها– معها وحدها.

كان (آدم) قد عاد مكانه بجوارها عندما ارتفعت فجأة موسيقى إيقاعية، و وقفت (سارة) مع ذلك الرجل المجهول –بالنسبة لـ(كارما)– يرقصان رقصة مليئة بالشغف و البوهيمية. عندما انتهت

صفقوا ثانية دون (كارما)، و (آدم) الذى كان يراقبها بوعي شديد.

– أنتِ لم تصفقي! (تحدثت (سارة) مبتسمة .)

– عفوا؟!

– لم تعجبكِ الرقصة.

شعرت ببعض التردد و خاصة مع أسلوب المرأة الأنيق الذى يشبه أسلوب (آدم)، و إن بدا لها أن فنيهما لا يتشابهان البتة. أجابت:

– ليست الفكرة أنها لم تعجبنى؛ هى فقط مسألة مدارس فكرية و فنية.

أنصت (آدم) لحديث الجميلتين –الذى بدأ توا– صامتا، على شفتيه ابتسامة لا تكاد تُرى.

– إذن لأى مدرسة تنتمين؟

– الحقيقة أيضا هى أننى لا أعرف على وجه التحديد، لكن بالنسبة لى، فإن كل ما خلع عباءة الروح و لبس لباس الرغبة، ليتدنى لمستوى الحس و مخاطبة الجسد ليس فنا.

– ألا تتفقين معى أن واجب الفن التعبير عن النفس البشرية بكل ما تحمل و أن يشملها بكل ما تمثل؟!

- هنا يختلط معنى الفن و أنواعه بمعانٍ و ممارساتٍ أخرى. أفهم ما تقصدين أننا البشر روح و جسد، و الفن يجب أن يعبر عن الاثنين، لكنى أرى أن رسالة الفن الأسمى هى التعبير عن الروح الإنسانية التى تميز الكائن البشرى. نعم نحن حيوانات! نمارس جميع مظاهر الحياة التى تمارسها كل المخلوقات الأخرى، و تلك الممارسات هى التى تمنحنا صفة الحيوانية، و هى كفيلة بالتعبير عنها، لكنّا الجنس الوحيد فوق هذه الأرض الذى يخلق الفنون و يمارسها؛ الحيوانات لديها حس الشهوة و الرغبة، و ربما لديها حس الفن أيضا، لكن لا يمكنهم تأليف الموسيقى أو الرسم أوكتابة الأشعار؛ نحن فقط الأقدرون، لذا يجب أن نستخدم ما يميزنا فى التعبير عما يميزنا، و هى الروح الإنسانية الخالصة من مظاهر الحس.

- إنها المثالية غير الواقعية، كما أنى لا أرى خلطا مفتعلا بين الفن و غيره من المعانى و الممارسات، و لكنى أرى الفن فى كل شئ.

- و أنا أقدس الفن لدرجة تجعلنى أرى من الأولى له أن يرتقى بالإنسان لما يميزه، لا أن ينحط به لما يشاركه مع جميع الحيوانات.

– أنا متفق مع (كارما) تماما. (توجهت الأنظار نحو الصوت الهادئ الذى ارتفع، و كان لـ(دانى).) تحولت (سارة) نحو (آدم):

– ما رأيك يا (آدم)؟

– أرى أن أيا كان ما يعبر عنه الفن المهم هو كيف يعبر.

– و كيف يجب أن يعبر الفن؟ (سألته (كارما).)

– هذا أخطأ ما قد يُسأل بشأن الفن، و الأخطأ منه إجابته و إلا لم يعد فنا.

– هل تعلمون؟ كل ما تتحدثون فيه يكمن فى سر واحد، هو النسبية، و إن حدثتمونى الآن عن النسبية و علاقاتها بالفن و النفس البشرية سوف أخرجكم جميعا من بيتى. هيا نتناول العشاء!

★★★

فى عودتهما التفت إليها:

– ما رأيكِ؟

– كان ذلك رائعا! طالما تمنيت شيئا كهذا.

– و ماذا بشأن الكمال و الجمال و عدم قدرتك على الاحتمال؟ ماذا رأيتِ اليوم؟

– تقصد اختلافى و (سارة)؟! ربما أتفق معها فى شئ؛ هو أن الفن فى كل شئ، و لقد لمست الفن فى اختلافنا الليلة. استمتعت بالمناقشات على كل حال.

– و جميعهم استمتعوا بوجودكِ أيضا!

– أخبرتك أنى أنتمى إلى هنا.

– و أخبرتك أنكِ ستعتادين النور.

– لست متأكدة بشأن ذلك. (كانت فى نفسها تفكر أنه ما أن تعود لذلك المنزل، حتى يعود كل شئ إلى الجمال المطلق الذى يكاد يطيح بعقلها، و لا يُبقي منها سوى روح هائمة فى سماء (آدم أبيض). ليتها تخبره أنه الكمال الذى جاءت على شرفه.

– ليس هذا ما بدا فى كلماتكِ اليوم على أى حال؛ بدوتِ الأكثر إشعاعا.

– ليس أكثر من معزوفتك.

ابتسم ثم قال:

obeikandl.com

– إلى أى حد تقدسين الفن (كارما)؟

– ذلك الحد الذى يجعلنى أقدم له أغلى القرابين.

صمتت لحظات و نظرت نحو الطريق، ثم توجهت إليه: ما رأيك بصراحة أستاذ (آدم)؟

أطلق ضحكة و أجاب:

– لا زلتِ تفكرين بنفس النقطة! لقد قلت رأيى بصراحة. للفن القدرة أن يعبر عن أى شئ و كل شئ، فى الواقع و الخيال واليوتوبيا، عن كل المعانى و المتناقضات. لكن العبرة بالوسيلة.

– لم أقل ليس لديه القدرة، و لكن هل يليق بالفن أن يعبر عن الشهوة و الرغبة؟!

– لم لا؟ إذا كنا نعكس الشهوة لإعلاء قيمة الروح، كما أن نظهر القبح لنبرز الجمال.

– إذا الغاية تبرر الوسيلة هنا، و هذا مناقض لرأيك بأن الوسيلة هى الأهم، كما أن هذا قد يجعل الوسيلة –و التى هى الفن–غير شريفة! كما أن القبح لا يعكس إلا القبح و الشهوة لا يمكنها أن تعمل لصالح الروح، و الرذائل لا تلد الفضـ..

صمتت عن حديثها فجأة و تصلَّبت مقلتاها كأن أحدا أمسك بلسانها.

– ماذا بكِ؟ .. لعلك انتبهتِ أنكِ من تناقض نفسها الآن! أنا لم أقل أن للفن أن ينحط لمستوى الشهوة للتعبير عنها، لكنكِ من قالت أن للفن تُقَدَم أغلى القرابين. ألستِ تجعلين من الفن هنا غاية تبرر كل وسيلة؟!

(كارما) محقة؛ الشهوة لا تعمل لصالح الروح و الرذائل لا تُوَلِّد الفضائل. (آدم) محق؛ هى تناقض نفسها؛ تحرم الفن كوسيلة لبعض الغايات، الغايات نفسها التى جعلت الفن يوما شفيعا لها، يومَ كانت لها الوسائل، و كلاهما متفقان –دون أن يدريا– أن الغاية لا تبرر الوسيلة.. لا للفن و لا لغيره من الغايات.

و حالما لاحظ ما طرأ عليها:

– هل أنت بخير؟ حسبتك تحبين هذا النوع من المناقشات!

– نعم. فقط شعرت ببعض التعب فجأة.

عندما عادت إلى غرفتها، استلقت على الفراش و تطلعت إلى السقف الذى أفتُتِنَت به منذ مجيئها كما كل شئ فى المكان. لم يزعجها حديث (سارة) أو اختلاف تعبيرها الفنى

عما تفضل كما أخبرته. لم يزعجها اتهامه لها بالتناقض فهى تعلم أنه محق، حتى أنها أدركت ذلك قبل أن يتفوه هو به؛ كم من مرةٍ خلال السهرة دوت كلماتها فى أذنيها كأبواق القيامة! تنبهها كم من فعل لها ناقض معتقداتها التى تعبر عنها بتلك الكلمات. شيئان فقط أرقاها وهى مستلقيةٌ هناك. أولهما عدم انزعاجها فى الأساس لهذا التناقض ولا التأثر بصوت الأبواق، حتى عندما عاودتها صورة من تلك الليلة. لربما سر ذلك يكمن فى الآخر.. ذلك الذى يتحرك فى صدرها و يشتد؛ ما هذا الذى تشعر به؟! (آدم) هو ملاكها الذى سيرشدها إلى الحقيقة و الخير و الجمال. جاءت إليه من بلادها البعيدة كحاجٍ يطلب التطَّهر من الذنوب. جاءت له لا لغيره، ليفسح أمامها سبل الروح بالفن. ما يحدث بالنسبة إليها هو دربٌ من المعصية.

رغما عن اليوم الزاخر الذى مرت به و كل ما أصابها من فكر، إلا أنها تلك الليلة لم تضطر لمقاومة ألواح الخشب، أو الوقوف فوق القمة المخيفة؛ فقد راودتها أحلامٌ من نوعٍ آخر.. تلك الأحلام الكفيلة أن تجعلنا ننسى كل ما نمر به و نكتفى بالعيش عليها أياما و أياما؛ لا ننسى واقعنا فحسب، بل ننسى أننا -فى الأصل- نحلم. تلك الأحلام التى قد تخيفنا قدر ما تبهجنا.

★★★

مـرت الأيـام و انغمسـت فـى دفـق مـن الشـعور بالسـعادة والإلهـام. أصبحـت تتنـزه فـى أجـزاء كثـيرة مـن اليـوم؛ تحمـل معهـا كتـب و أوراق العمـل؛ تنمقهـا و تنهـل منهـا. تجتمـع و (آدم) باسـتمرار. تجلـس بجـواره يعـزف الموسـيقى أو يؤلفهـا –و كـم كانـت سـعادتها حـين سمـح لهـا بذلـك و فعلتهـا أول مـرة!– تسـأله و يتناقشـان، خاصـة عندمـا يسـتثيرها واحـد مـن الكتـب التـى تعمـل عليهـا. وجـدت فـى قربـه كثـيرا مـن الجمـال و الراحـة بقـدر أعظـم مـن أى شـئ، حتـى أنـه ليطغـى علـى ذلـك التيـار المـؤرق الـذى يمـلأ كيـان الأنثـى تجـاه رجـل، زخمـا روحيـا و وجدانيـا أقـدس مـن أى عشـق أو ولـه، فوجـدت النشـوة الروحيـة و السـعادة الذهنيـة التـى تمنتهـا دائمـا. تحضـر معـه تلـك السـهرات فـإذ لهـا فـوق الحيـاةِ حيـاة مـع كل نغمـةٍ منـه، أو لوحـةٍ مـن (سـارة)، أو قصيـدةٍ مغنـاه بصـوت (دانـى) أو مـع غيرهـم مـن الفنانـين. لكنهـا انزعجـت منـه تلـك الليلـة و أخبرتـه بذلـك –بعـد انتهـاء إحـدى السـهرات فـى بيتـه– لأنـه "لم يبـد عـدم موافقـة علـى تعليـق (سـارة)":

– هل تعلمين (كارما)؟ لا تليق الروحانية لكِ.

– و ماذا يعنى هذا؟!

– جمالك جرئ، ما هو ببرئ. شفتاك المتلئتان باستدارة تبرزان شهوانية عارمة. عيناك الواسعتان يدلان على الرغبة فى المزيد، و لونهما الأخضر و وميض النار فيهما يعكسان غضباً و نقماً و قدرةً على الاشتعال و التدمير.

ضحكت (كارما) و أخبرتها أنها ستعتبر حديثها إطراءً، لكنه أثار فيها استياء شديدا حتى هى لم تجد له مبررا. صاحبها ليالى و عاودها بشكل خاص كلما تذكرت رده: "لا أعرف! و لكن (سارة) رسامة، و هى الأقدر على قراءة الوجوه و تحديد الملامح."

و لربما ما أشعل استياءها أكثر، تلك النظرة فى عينيه لحظات نطق (سارة) بكلماتها. لم تستطع أن تمسح عن بالها صورة وجهه، كيف نظر فى تقاسيم وجهها ثم أشاح بصره عنها، كأنه قرأ توا كل ما قالته هذه الرسّامة.

فى إحدى الليالى عندما كانا مجتمعين على العشاء، ترددت نظراتها بين وجهه و الطبق أمامها قبل أن تتفوه بتلك الكلمات:

– هذا العصر بينما أتناول القهوة فى المدينة و أعمل على واحد من الكتب، رأيت أمامى إعلانا أثار انتباهى كثيرا.

– و ماذا كان؟

– كان لشقة صغيرة فى المدينة، تماما فى المكان الذى أحب التواجد فيه.

– أنت تفكرين بالانتقال؟!

– لقد تحدثت إلى المالك بالفعل. سأنتقل الأسبوع القادم.

اقتضب وجهه، و لم ينظر إليها أو يعطها ردا.

"أستاذ (آدم) أنا شاكرة جـ.."

– و تعتذرين على الإزعاج. ...

"فقط لا أحب أن تتم مفاجأتى على هذا النحو (كارما)! أعنى أن كان بإمكانك إخبارى بينما تخططين؛ أقل شئ لساعدتك."

– حضرتك لم تدخر جهدا فى مساعدتى أو إكرامى، كما أنى لم أتعمد عدم إخبارك، و لكن هذا ما أتفقنا عليه مذ دخلت هذا المنزل و لا يمكننى أن أبقى عبئا عليه أكثر.

– " (كارما) أنت جزء من هذا المنزل الآن، ألا تعين ذلك؟!

احمرّ وجهها و تعالت نبضاتها أكثر مما هى عليه. توا استأنف:

و لكن بالتأكيد كما ترتاحين. فقط تذكرى دائما

obeikandl.com

أن هـذا أيضـا منزلـك و أننـى.. و أننـا أهـلٌ لـكِ هنـا.

توقـف قليـلا ثـم تبسّـم مضيفـا: و آمـل أنـك تدركـين الآن أننـا هنـا لسـنا ملائكـة كمـا اعتقـدت لحظـة مجيئـك. نحن فقـط مختلفون عمـن عرفتهـم قبـلا فـى حياتـك. أتمنـى أن أكـون جعلتـك تقتربـين مـن هـذه الحقيقـة، لأنـك سـتكونين بحاجـة كبـيرة لمواجهتهـا.

– لا أعتقـد أنـى تدربـت علـى ذلـك كفايـة أو أنـى سـأفعل مـا دمـت أسـكن منزلـك أسـتاذ (آدم). سـيظل هـذا المنـزل بالنسـبة لـي قطعـة مـن الفـردوس تحرسـها الملائكـة فـوق الأرض.

ظـل محتفظـا بابتسـامة ضعيفـة علـى ثغـره بينمـا اسـتأذنته وذهبـت للفـراش. عندمـا قامـت تبعهـا بعينـين غيمتهمـا العاطفـة، مـرددا فـى نفسـه: "(كارمـا) ! أنـتِ المـلاك الوحيـد هنـا."

أغلقـت بـاب غرفتهـا خلـف ظهرهـا و دقـات قلبهـا تـكاد تشـق صدرهـا. حديثـه و نظراتـه فتحـا فـى داخلهـا البـاب علـى مصراعيـه، ليقـف قلبهـا عاريـا أمـام ذلـك التيـار العنيـف. لا يعلـم كـم مـن طاقـة روحيـة و ذهنيـة بذلـت كـى تقـاوم عكسـه و تسـد بابـه. تـرى كيـف لهـا أن تفسـر كلماتـه و تقـرأ نظراتـه وسـط تلـك العاصفـة فـى قلبهـا و عقلهـا؟ لم تفكـر قـط أن تيـارا مماثـلا قـد يجتـاح صـدره و لـن تفعـل الآن، و لكـن.. لم كذبـت عليـه ثانيـة؟!

ماذا أرادت أن تختبر؟ ماذا أرادت أكثر من أن تكون بهذا القرب؟! ليس فى نيتها الابتعاد عنه شبرا واحدا، و لكن ربما لم يكن من قولها مفر حفظا لكرامتها و حدود اللياقة. إذن لمَ لم تخبره الحقيقة ببساطة؟! إنها تحدثت مع مالك إحدى المنازل المجاورة و لن تبتعد إلى المدينة، و إن ذلك مع بداية الشهر و ليس الأسبوع القادم! كم تمنت لو أنه طلب منها البقاء! لتخبره أن ذلك أكثر ما تود فى هذا العالم، وأنه مهما اتسع أمامها الأفق.. سيظل قربه براحها الأمثل.

obeikandl.com

الفصل التاسع

مـر يومـان آخـران لم تـره فيهمـا. كانـت (بلقيـس) معهـا باستمرار حسب طلبه، -"كي تساعدها فيما قد تحتاجه قبل الرحيل."- حتى أيقظتها ذات صباح للفطور و أخبرتها أنه بالأسفل. رغم تلك القفزة عن سريرها، تهادت و هي تنهى السلالم الأخيرة نحو الطابق السفلي مرتدية فستانا ليلكيا صباحيا و سترة بيضاء حتى خصرها. توجهت نحو زاوية المائدة؛ رأته جالسا على كرسيه مستقبلها بابتسامة مشرقة. كان ناضجا و دافئا كشمس الضحى. ابتسمت له و ابتسم قلبها من قبل عينيها و شفتيها. لم يتبادلا حديثا، لكن حتى صمته.. كان له في نفسها موسيقى و في قلبها إيقاع. شعرت بموجة من الأمان و السعادة لرؤيته ووجوده قربها ثانية و إن كانت مرتها الأخيرة.

بعد الفطور، جلس على البيانو و هي قريبة تشاهده كما اعتادا. لم تحتج كثيرا من الوقت أو إعمال تقديرها الموسيقى كي تدرك معاني الموازير؛ هي معزوفة الوداع دون شك، لكن لم يكُن

الـوداع هـو كل مـا تحملـه ؛ ثمـة شـئٌ آخر تخشـى أنهـا لا تفهمه ، أو ربمـا تخشـى أنهـا تفهمـه. عندمـا انتهى اسـتدار لها ؛ لم يسـألها عن رأيهـا كمـا يفعـل دائمـا. أطالـت إليـه نظـرة يملؤها الشـوق والسـؤال ، و بادلهـا بكثـير مـن المعانـى فـى عينيـه و علـى بسـمة شـفتيه.

– هيّا (كارما)! تأخرتِ على نزهتك الصباحية.

– لا! أفضل أن أكون برفقتك.

– لا! أنا من سأكون برفقتك.

غلب الصمت بدايةَ خطواتهما وسط الطبيعة الولود، حتى تعانقت كلماتهما: "ستزورين.." ، –"أتعرف.. ؟"

عندها تعانقت ابتسامتاهما أيضا.

– ماذا ستقولين؟

– تفضل أنت أولا!

– السيدات أولا! كما أنه لم يكن شيئا مهما؛ أنا أسمعكِ.

– مـرةً سـئلت مـاذا سـأفعل إذا تبقـى لـي يـوم فـى هـذه الحيـاة، و بإمكانـى فعـل أى شـئ؟

– و بم أجبتِ؟

obeikandl.com

- أن أقضى يوما برفقتك! أذكر حينها كيف ضحكت صديقاتى منى و تغامزن علىّ. أول ما قفز إلى ذهنهن من معنى بالطبع أنت تفهمه، لكنهن لم تفهمن أبدا. ما عنيته أن أقضى معك يوما عاديا من أيامك؛ نتناول معا الغداء بينما نتحدث عن أمور الفن و الروح و الوجود؛ تعزف لي الموسيقى؛ أجلس فى صمت أتأملك مكبا على نوتتك فى تركيز تام تؤلف بين حروفها؛ أراقبك بينما تمارس تفاصيل حياتك.

- و لم كل ذلك (كارما)؟! لم كل هذا الولع بي أنا؟!

- ليس ولعا! إنه تقديس. أردت ذلك لأنى لم أعتبرك يوما بشرا. رأيتك شيئا أرقى و أقدس و أنقى منا نحن البشر.

- هل تحبيننى (كارما)؟

- صدقنى لا أعرف.. أنت خاصٌ جدا بالنسبة لى (آدم)؛ أنت مقدس بالنسبة إلىّ. أنت تمنحنى إلهاما لا يمكن لأى شئ فى هذا الكون أن يمنحنيه. فنك يعطينى إحساسا بالحرية، بالأنوثة، يملؤنى بكثير من الشغف تجاه كل شئ فى هذه الحياة. حقا أنا لا أعرف ماذا قد يُسمى هذا الشعور، و لكن هذا أنت بالنسبة لى.

تصاعد تيّار قويّ من المشاعر و الصفاء بينهما، طلّ بقوة من نافذتي عيونهما.

– هل تتزوجيني (كارما)؟

– لا (آدم)! لا يمكنني ذلك. لا يمكنني حتى أن أتصور نفسي بين أحضانك!

– لم أحسبك تبغضينني كرجل!

– بالطبع لا أبغضك! و لكن أخشى إن سكنت أحضانك أن ألوث طُهرك و قدسيتك بآثامي البشرية.

– بربك (كارما)! ماذا تقولين؟! لست ملاكا! أنا بشر مثلك و مثل الجميع.

– لا لست بشرا، و لست مثل الجميع. من غير الممكن لمن تخصه السماء بهكذا إبداعا ليخلق تلك الموسيقى و يمنح ذلك الفن أن يكون بشرا مثلنا! و مهما حدث لن أقتنع بغير ذلك.

– بل أنا بشر (كارما) و سأثبت لكِ ذلك.

طوّق خصرها بذراعيه و أودع روحه و قلبه قبلةً بين شفتيها.. عندما حررها من قبضة شفتيه، ظلت ملتصقةً به و راحتاها مسترخيتان على عنقه الصدفيّ. حتى همس:

– أنا آسف (كارما).. أنتِ صغيرة جدا.. و جميلة جدا جدا، و أنا رجلٌ أعياه الحب هجرا و غدرا و حرمانا. أنا..

– أنت .. و ما أدراك ما أنت!

– إبقِ (كارما)! إبقِ فقط إن أردتِ البقاء، لا أريد لشبابك الندم يوما.

– (آدم)! أنت كل ما يمكن أن أحب فى هذا العالم!

– أحبكِ (كارما). أحبكِ بقوة و أقسم أني أبدا لم أفكر أن أستغلَّ..

– لقد جعلتنى الشخص الذى طالما أردت أن أكون.

– إذن نخب البدايات الجديدة! نخب القدر الذى هو أجمل من أى شئ! نخب الحب! نخب الجمال.. نخب السعادة! نخب الآتي الذى هو لنا .. نخب ماضٍ راحلٍ لا يهمنا فى شئ! نخبنا .. نخب لقائنا!

– و ليطوِ الزمان إحدى صفحاته فتصبح فى طىّ النسيان، لنستقبل فجرا جديدا .. سماء جديدة، أرضا جديدة. ليس للماضى مكان، ليس للندمِ مكان. الإلهام لنا سماءٌ وأرضٌ، هواءٌ و مطرٌ؛ الحب وسيلة، و الروحُ هي الشريان.

فى الليل تعالت موسيقى راقية ذات إيقاعٍ لا يضاهيه جمال من مكتب (آدم أبيض). لم يكن عزفا له، و لم تكن سهرة فنية بمنزله؛ كانت واحدة من أسطواناته أدارتها (كارما) و راحت تدور و تتمايل عليها كما امرأة ليست سواها من أنثى فوق هذه الأرض. جلس على أريكة يشاهدها فى تفاصيلها و بسمة مستنيرة تضئ وجهه. نهض بهدوء و اقترب منها ممسكا بذراعها، لكنها رقصت مبتعدة. اتسعت ضحكته و عاود الاقتراب، لكنها كانت تنفلت بنعومة من يديه كل مرة. حتى ضحك قائلا:

— (كارما)! من أخبرك أنى سألعب هذه اللعبة؟!

— و من أخبرك أنى ألعب؟

— و ماذا يفترض بهذا أن يعنى؟!

أمسكت به من ظهره و قبلته فى كتفه:

— أحببتك ملاكا جئته يهون علىّ أوجاع الحياة بروحه، ينير جنباتها بنوره و يوارى صلاها بظله، فلا تلومنى إن تهربت من بين ضلوعك، فلست ملاكا، و أخشى على نورهم من آثامى.

التفت ناظرا فى عينيها بحبٍ و عطف و قال مازحا:

— إذا ربما (سارة) ستجيد الرقص معى على هذه الموسيقى.

– و كذا لا يمكننى أن أقبل برؤية غيرى بينهم، و إلا لا تكن ملاكى، و أنا لا أحب بشريا!

وقفت أمامه صغيرة و جميلة؛ تنظر إليه نظرة طفلة لحامل الحلوى ليلة العيد. رمت نفسها بين ذراعيه فضمها ببالغ من الحنان و الضعف. كانت ليلتها الأولى فوق صدره كنعيمٍ الأحلام؛ ينسيك ما دونه؛ كل ما نخبئ فى أعماقنا من ذكرى، أو نحمل فى ضمائرنا من فكرة يبدو صدى لم نسمعه يوما فى غمرة انتشائنا بطربه.

– هذه اول مرة أشعر أنى أحب هذا الجسد دون أن أنقم عليه أو أود الانتقام منه. لقد هديت روحى و أرشدت ذهنى، و الآن..جعلت لهما وصلا فى جسدى.. ذلك القلب الذى ينبض لك وحدك (آدم).

اتكأت على كوعها و نظرت فى عينيه. أزاحت عن جبهته خصلة من ذهب شعره الذى غازلته الفضة:

"تلك السهرة الأولى مع (دانى) و (سارة) أردت أن أسألك سؤالا بعدها لكنى لم أجرؤ."

– ماذا بـ(دانى)؟

– ماذا بـ(دانى)! من قال أنى سأسألك عن (دانى)؟! كان سؤالا بشأنك أنت و بشأن الحديث الذى دار تلك الليلة!

ضحك و هو يمرر يمناه عبر شعرها وصولا إلى كتفيها ثم يعاود الكرّة:

– حسنا! و ماذا كان؟

– أذكرك قلت أن بالفن نستطيع التعبير عن كل شئ و الأهم هو الوسيلة الفنية.

– نعم. أعرف أنى قلت، كما أعرف أنكِ لم تتوقفى عن التفكير فى ذلك الأمر أبدا. و الآن أخبرينى! ماذا تودين أن تسألى أيضا؟

– هل عبّرت بموسيقاك قط عن شهوةٍ أو رغبة بإمرأة؟

– لا أعرف! ربّما.

– هيا (آدم)! كن صريحا من فضلك!

– لا أعرف؛ حقا لا أعرف! أعنى .. ربما قد فعلت و لكنى لا أدرك، أو لم أدرك ذلك وقتها.

– بحق السماء (آدم)! أنت رجل ناضج؛ لا يمكنك ألا تعرف! من سيعرف إذن؟!

ابتسم من جزع تلك الطفلة و توترها و قال:

– هل تعلمين؟ أذكر أيضا قولك إننا مميزون بين جميع الحيوانات، و هذا صحيح بالتأكيد، لذا أنا أقول إننا نميل دائما إلى تزيين المشاعر –على حسب حاجتنا– إلى أقصى حد، و التى قد تكون فى أصلها خالصة و واضحة لغيرنا من الحيوانات. بمعنى أنى قد أكون ألفت أعظم مقطوعة موسيقية عن الحب العذريّ الخالد، و لكنى لم أشعر فى داخلى بذلك على وجه كاف، أو حتى شعرت بداخلى بما ينافى ذلك، و لا أعتقد أن هذا يجعل منى إنسانا سيئا (كارما)، فنحن بشر على أى حال.

– إذن أين الغاية و أين الوسيلة (آدم)؟!

– الغاية هى الوسيلة (كارما)! هى التعبير.. التعبير بلا حدود. التعبير بلا قيود. التعبير بلا تفكير.. فقط التعبير!

– التعبير الضال!

قهقه مداعبا غرتها :

– يا لمصطلحاتك! و لكن صحيح! ربما هو ضال عن مصدره، لكن صدقيني! لن يضل وجهته أبدا؛ لابد و يصل في النهاية لسطره الصحيح من الرواية، لذا أنتِ هنا يا صغيرتي.

– نعم.. أنا مقطوعتك الضالة. (قالت بشرود قبل أن تحيطه بذراعيها و تدفن رأسها في رقبته.)

★★★

اليوم التالي حضر الجميع في منزلهما احتفالا هو المفضل لها. ليس فقط لاقترانها الأبدى بملاكها، و لكن لجلوسه العزيز على البيانو مع اقتران أنغامه بصوت (داني). تلك اللحظة لم تحدد وقتا و لا مكانا و لا رفقة. فقط فكرت في كونها امرأة محظوظة جدا، لتحظى حواسها بأنامل (آدم) و حنجرة (داني) في الوقت ذاته! "هذه الأرض –حقا– حافلة بالملائكة!"

و في واحدٍ من تلك الأيام التي يقدر لنا فيها الاستفاقة من شهد الأحلام، بهزةٍ عنيفة بيد الزمان، الذى يأبى أن يخدعنا كما نخدع نحن أنفسنا – فلا أحلامنا حقيقة و لا الفردوس فوق الأرض–، كان (آدم) يعمل في مكتبه حينما دقّ بابهما زائرٌ لا ينتظره أحد.

الفصل العاشر

عادت ذلك اليوم تحمل بين يديها لوحة المرأتين فى سعادة بالغة. لا تطيق الانتظار حتى تصل فتخبره أنها حصلت عليها أخيرا، كم انتظرت كى يُفتح المزاد بشأنها، و كم وجدت من صعوبة حتى أصبحت لها. لحظة دخولها المنزل انفتح أمامها باب المكتب و خرج مشيرا لها بالدخول.

– أمن أمرٍ هناك (آدم)؟

– لا. أين كنتِ طوال النهار؟

– ليس فى مكانٍ محدد. جلت فى المدينة و دخلت الأوبرا، و لن تصدق ماذا؟! حصلت على اللوحة التى أريتك إياها سابقا. انتظر سوف أحضرها!

همّت بالخروج – من المكتب – فجاء صوته جللا:

– (كارما)! أنتِ لم تخبرينى أبدا عن تلك الحادثة؟!

– أية حادثة؟!

– اغتصابك! أعنى أريدك أن تشرحى لى التفاصيل من فضلك!

openkandil.com

– نعم! (آدم) ماذا تقول؟!

– تماما ما أقول. أريدك أن تخبرينى من فعل ذلك؟ كيف؟ أين؟ و كل ما تذكرين من تفاصيل، و بالطبع تفاصيل كهذه لا يمكن أن تُمحى من الذاكرة.

– (آدم) هل تمازحنى؟! (صمتت و أطالت النظر فى عينيه تحاول أن تستنبط ما أصابه، و رغما عنها انفلتت دموعها) اللعنة! لِمَ تحاول أن تذكرنى بشئ كهذا؟!

كان ينظر بعينين تملكهما الوعيد أكثر من الشفقة، و قضى على عاطفتهما الغضب:

– والدتك تريد رؤيتك بالمناسبة.

لم تكن بحاجة أن يتكلم أكثر أو يطيل إليها النظر بهاتين العينين لتفهم أن شيئا قد حدث و فضح له أمرها كله. انهمرت الدموع من عينيها دون انقطاع و هى تمسحهما و تحاول أن تتحدث، لكن لم تطِعها الكلمات فى الخروج من فيها.

– لم فعلتِ ذلك ؟..؟ لم فعلتِ ذلك ؟ (صرخ فإرتعدت فى مكانها.)

– يمكننى أن أشرح..

– ماذا ستشرحين؟! ستخبريننى كم أنتِ مخادعة أو كم أنا غبىّ! تنامين مع أحدهم ثم تأتين إلى بيتى مدعيّة البراءة..

صرخت كى تُسكِتَه لكن صوته كان يزداد حدة و غضبا:

.. لتحدثينى عن الروح و المثالية!

سقطت تبكى فى غير تصديق على المقعد خلفها، بينما واصل حديثه المهين بشأنها فى غير رحمة:

.. بسيطة! أليس كذلك؟! ثم تفتكين بفريستك الجديدة فيسقط تحت قدميك طالبا الوصال، لكنه أغبى من ذلك الذى سبقه فيتزوجكِ، و لا تنفكين تحدثينه عن انحطاط الرغبة الحيوانية لدى النفس البشرية! أليس كذلك؟!

– لا يا (آدم)! ليس كذلك، و لن أسمح أن تتحدث معى هكذا! أنا لم أطلب منك شيئا يوما. لم أسألك حبا أو وصالا. أنا لم أرد سوى إلهامك و أن أحيا على أنغامك.

– حقا ؟! إذن أى نوع من الفنون كان يجيد ذاك؟

– تظننى أردت ذلك .. أتظننى أردت ذلك؟! أتظننى لم أمقت تلك الليلة المشئومة بكل لحظاتها، بكل ذرةٍفى كيانى، و لا أزال أصارعها فى ذاكرتى؟!

جلس على الأريكة بأنفاس متسارعة وعينين متعبتين ينطلق منهما الشرر المميت.

- إذا هل يمكنكِ أن تقولى لم فعلتِ إن لم تريدى ذلك؟!

- نعم يمكننى، و لكن بتُّ أشك أنك ستفهم. تفهم أنى أردت ذهابا بلا عودة، بلا عودة مهما حاولوا أو مهما أرادوا .. و حتى إن أردت أنا ذات يوم. أردت أن أتحرر من نفسى. لم أرد أن أهدد بقائى هنا أو تصديقك إياي.

- أردتِ رحيلا بلا عودة. أردتِ أن تتحررى من نفسك. أردتِ أن تجعلينى أصدقك، بالطبع لأنك لا ترغبين سوى أن تستمتعي بروحانية فنى و أنغامى. هذا على أساس أنى كنت لأصطحبك للطبيب فى حال لم أصدقك، أليس كذلك؟! أو أنكِ كنتِ تعرفين تماما إلام تصبين و كيف ستصلين إليه؟ كنت تعرفين أنه سيأتى يوما و..

- يكفى (آدم) هذا يكفى!

- ماذا؟ هل صدمتك حقيقتك إلى هذه الدرجة؟! الاحتمالان صحيحان (كارما)! - رغبتِه و رغبتِنى-، و هذه هى الحقيقة.. حقيقتكِ! .. و لكن تعرفين ما الأسوأ؟! أنك بررتِ ذلك لنفسك ببراعة عظيمة و تلفيق -بحق- مبهر! حتى الشيطان..لا يجرؤ عليهما.

هبّت من مكانها و تحدثت فى حدة؛ لا تنفك تحاول إيقاف دموعها:

– لا ليست تلك الحقيقة! الحقيقة أنى رغبت أن أحيا هذا كل ما رغبته. رغبت أن أحلم، رغبت أرضا تشرق فيها الشمس. رغبت نفسى .. لم أرد أن أخسر روحى. خفت أن أستيقظ يوما فأجدنى مثلهم! بحثت عن منفذ للنور، للهواء، للروح، منفذ للحياة. كنت أقوى من هؤلاء الذين يهربون من جحيم بلادنا بالموت، و هو المنفذ الأكثر شيوعا إن يهمك أن تعرف! استيقظت يوما و قررت أن أنفذ بجلدى –بلا عودة– من أرض القحط الإنسانى. عرفت أنى سآتى هنا فأولد من جديد و أتطهر من ذنوبى.

(قالت جملتها الأخيرة بوهنٍ كأنها تتوسل.)

– ألم تخسرى روحك يوم فعلتِ ذلك؟! ألم تشعرى أنك واحدة منهم؟!

قالت بينما تتوجه نحوه:

– لا لم أخسرها. هل تعرف لِمَ؟ لأنى وجدتها هنا أول مرة.

اقتربت منه بشدة و شدت بيديها على صدر قميصه. قالت بلهجة يملؤها التحدى رغم دموعها:

و لا (آدم)! لم أشعر أبدا أنى واحدة منهم، و تعرف ماذا أيضا؟! لست نادمة على ما فعلت، و إن عاد بى الزمن و عرفت أنه الطريق الذى سيبقينى هنا و يجعلنى قريبة منك سأسلكه ثانية.

نظر فى وجهها بضعفٍ و امتهان ثم نطق:

– ليس بعد الآن.

★★★

علمت أن لم يعُد لها مكانٌ هناك. هكذا هم تائبو جهنم؛ تُكتب على جبهاتهم الخطيئة أبدا، و لكن حتى التوبة .. فهى للذين يفعلون السوء بجهالةٍ، و هى ليست منهم. عسى أن تحظى بتوبة المولى كـ(آدم) آكلا من شجرة الخلد غير جاهلٍ حرمانيتها، ولكن ماذا كان الثمن؟ طرده من الجنة.

★★★

كانت ترتدى قميصا أسود حتى ركبتيها عاقصة شعرها فى بوهيمية، تنتظره خلف إحدى النوافذ الزجاجية الكبيرة وقد جفت عيناها و انتفختا من البكاء.

– أسمع بكاءك منذ خمس ساعات متواصلة على أقل تقدير. كفاكِ أيتها الشابة! لا يستحق الأمر كل ذلك.

– لعلك سترتاحين منى أخيرا سيدة (بلقيس)، لكنى سأشتاق إليكِ صدقينى.

– لن يدعكِ ترحلين (كارما).

– لقد طردنى تقريبا.

نظرت لتلك المرأة – التى بدت واثقة مما تقول– و فى لهفة و انفعال أضافت:

و لكن لم تقولين ذلك؟! هل حدثك شيئا؟!

– لقد حدثنى كثيرا وحدثته أكثر و لكن ليس اليوم. لو كان فى نيته أن يدعك ترحلين لفعل منذ أول ليلة دخلتِ فيها هذا المنزل، لكن بدا أنه أراد بقاءك و حرص عليه أكثر مما فعلتِ أنتِ.

أنصتت (كارما) إليها كما لم تنصت لصوتٍ من قبل:

– أذكر أنى أخبرته بداية وجودك أنه ما من فتاة تمر بمثل تلك الظروف التى أخبرتِه بها، توافق أن تبقى فى منزل رجل غريب مهما وصل صيته أو وصلت ثقتها

obeikandl.com

بـه. كنـت أعـرف أنـه ليـس رجـلا ينقصـه العقـل أو الخـبرة ليـدرك ذلـك! لكنـى أخبرتـه. لحظتهـا أدركـت أنـه لم يسـمعنى كمـا لم يسـتمع لأى منهمـا. هـل تعرفـين؟ أعتقـد أنـه عـرف منـذ البدايـة دون أن يخـبره أحـد، أعتقـد حتـى أنـه عـرف عنـكِ مـا لم تعرفيـه أنـتِ -أيتهـا الصغـيرة-، لكـن كان صـوت أملـه فيـكِ و تعلقـه بـكِ أعلـى ممـا سـواه. لـذا أنـا أُخـبرك أنـه لـن يدعـك أبـدا، حتـى و إن أخـبره أحدهـم المزيـد.

- إذن ماذا تظنينه سيفعل؟

- لا أعـرف! لكـن كليكمـا خـدع نفسـه قبـل أن يخـدع الآخـر، و هـا أخـيرا قـد حـان الوقـت لتتوقفـا عـن ذلـك.

كان لحديثهـا وقـعٌ غريـب علـى (كارمـا)؛ أقلّه أراحهـا ظاهريا.

★★★

كانـت تتملمـل فـى فراشـها؛ تحـاول الخـروج مـن ذات الحلـم الـذى يتركهـا كل مـرة أعلـى الجبـل فـى مواجهـة البحـر. فتحـت عينيهـا عليـه واقفـا أمامهـا. تشـبثت ببنطالـه و نظـرت إلى وجهـه علهـا تبصـر عينيـه فـى ظـلام الليـل، لكـن لم تكـد تتبينهمـا برؤيتها الغافيـة؛ فمـا حدث بعدها لم يشـبه شـيئا مما حـدث بينهما من قبل. لم يكُـن عذبـا كنعيـم الأحـلام. كان شـهوانيا كأحـلام الشـيطان.

obeikandi.com

فـى الصبـاح نهضـت تشـعر بإرهـاق شـديد وحدهـا مـع بقايـاه فـوق فراشـها. مـن النافـذة الناقوسـية كان الهـواء يغريهـا بالنـزول إليـه، و الطبيعـة تدعوهـا للارتمـاء فـى أحضانهـا. حزنـت لشـعورها بعـدم القـدرة علـى التنـزه. عندمـا أحضـرت لهـا (بلقيـس) الفطـور سـألتها عنـه، فأخبرتهـا أنـه خـرج قبـل قليـل، و سـألت بدورهـا:

– هل ستخرجين اليوم؟

– لا سيدة (بلقيس). لا أشعر أنى بخير.

اسـتمعت إلى واحـدة مـن موسـيقاه التـى تجـد منهـا الشـفاء دائمـا و هـى تتنـاول بعـض رقائـق الفطـور، لكـن شـعورها بالإعيـاء كان أثقـل مـن الـدواء، فتمـددت وغطـت فـى نـومٍ عميـق لم تفـق منـه إلا عصـرا؛ حينهـا أخـذت حمامـا دافئـا و ارتـدت قميصـا قطنيـا أبيـض متوسـط الطـول، و سـترة سـوداء فـى نفـس طولـه. نزلـت الطابـق السـفلى و دون أن تنظـر نحـو غرفـة مكتبـه، فتحـت بـاب المنـزل. فجـاء الصـوت مـن خلفهـا:

– هل ستخرجين؟

– حسـنا سـيدة (بلقيـس)! مـا بـكِ تكرريـن هـذا السـؤال علـى مسـامعى اليـوم كلمـا رأيتنـى! كمـا هـل أبـدو لـك أنى سـأفعل؟! سـأروى زهـور الحديقـة فأحـد لم يعِرهـا انتباهـا منـذ مـدة.

أمسكت نبريج المياه و وقفت توزع الحياة على الزهور و النباتات التى كانت على وشك الاختناق. توقفت سيارة بجوار المنزل، فاقتربت تطل برأسها لترى ذلك الظل القادم نحوها. كان هيكلا تميزه، و ووجها تحفظه و عطرا لا يمكن أن تنساه. أفلتت النبريج فارتطم بالزروع و غمرها فى فيض، بينما التصق جسدا المرأتين فى لوحةٍ حيّة تختصر كل معانى العاطفة الخالصة و الحب الحقيقى و الشوق النقىّ، الذى لا يُرى ولا يُوصف إلا فى عيونهما و أذرعهما الملتفة حول بعضهما و أصابعهما المتشابكة.

فى الداخل، كانت أمها ترتشف رشفتها الأولى من عصيرها الأخضر المفضل عندما سألتها (كارما):

– كيف وصلتِ إلىّ؟

– جئت مع (ريان).

– أمى! ليس هذا قصدى و تعلمين.

– لا أعرف! هو من بحث حتى عرف مكانكِ، برجاءٍ منى بالطبع.

– أو أنكما استخدمتما رسائلى لتتبع مكانى؟!

– تقصدين رسالتك! لا أعتقد ذلك، فقد أخبرني أن من الواضح أنك قد اتخذتِ كل الاحتياطات –كعادتك– عند إرسالها حتى لا يمكن تتبعها. و لكن ربما! لا أعرف!

– هل هو في السيارة؟

– لا! هذا سائق، و هذه السيارة مستأجرة.

– بالطبع! لن يجرؤ على مواجهتي بعد ما أخبر زوجي البارحة.

– لا أعرف ماذا أخبره غير أنهما دبرا موعدا لأراكِ، و لكن أعرف أنه لم يأتِ لأن زوجك اتصل و طلب عدم مجيئه أبدا أو اقترابه من المنزل.

– بالطبع سيطلب ذلك، و هذا أقل واجب. هذا الغبي المتبجح أخبر (آدم) بكل ما حدث بيننا قبل أن آتي هنا و ألتقي به.

– و ماذا حدث بينكِ و بين (ريان) قبل رحيلك؟!

– أمي بالله عليك! لا تتظاهري و كأنه لم يخبركِ.

– (كارما)! طالما علمت أن لديك أسرارا، لكن لم أعرف أن (ريان) كان واحدا منها.

تطلعت (كارما) أمامها مدهوشة لا تدرى ماذا تفكر!

"ربما هو لم يخبر (آدم أبيض) أيضا!" أضافت والدتها.

بعد لحظات حاولت أن تطرد عنها أفكارها المتصارعة بشكلٍ مؤقت:

- المهم، أخبرينى! كم ستبقين من الوقت؟

- سنغادر عصر غد.

- و لم هذا الاستعجال؟

- لا أعرف (كارما)؛ هذا ما حدث. لم نعرف كيف ستؤول الأمور و لم نحجز سوى يومين، لكن مؤكد سنلتقى قريبا ابنتى، و ربما أنتِ من ستأتين المرة القادمة.

ابتسمت باتساع من دهاء المرأة الذى عهدته دائما و أجابت:

- لا أمي! أنت تعرفين أنى لن أعود إلى هناك أبدا. بشكلٍ أو بآخر أنتمى إلى هنا، لهذا البيت بالتحديد.

- (كارما) .. ألم يكن هناك منفذ آخر؟

- غير الرحيل لم يكن منفذا يا أمى! ربما تختلف الوسائل، و لكن عن الرحيل ما من بدائل.

obeikandl.com

الفصل الحادى عشر

استيقظت –فى اليوم التالى– مع انفتاح باب غرفتها:

– (آدم)! متى عدت البارحة؟

– باكرا! و لكنكِ كنتِ نائمة، هل أنتِ بخير؟

– أشعر بثقل فى رأسى و أطرافى.

– بالتأكيد! لأنكِ تنامين حتى هذا الوقت.

– كم الساعة؟

– تخطت الواحدة ظهرا.

هبّت عن مضجعها و سألت فى توتر:

– ماذا؟! ألم تتصل أمى؟

كان يتفحصها فى هدوء من أعلى إلى أسفل جسدها مستندا إلى نافذتها الناقوسية، و نطق ببرود:

– بل اتصلت! و قالت إنه من المفترض أن تلتقيا فى مكانٍ ما –لا أذكره– قبل رحيلها.

obeikandl.com

حدثته من خلف باب الحمام:

– نعم أعرف و لِمَ لَمْ توقظنى؟!

– لأنى أخبرتها أنك لن تذهبي إلى أى مكان.

فتحت الباب و وقفت تنظر إليه لحظة قبل أن ترد متوجهة نحو الخزانة:

– (آدم) ليس لدى وقت لذلك الآن؛ يجب أن أرى أمى قبل أن تغادر.

– لن تخرجى من هذا المنزل (كارما). يمكن لوالدتك أن تأتى لتراكِ.

التفتت إليه و قد أمسكت بمعطف طويل و قالت بجزع:

– و لكن كيف؟! طائرتها ستقلع عصرا لن تملك الوقت الكافى!

– لا أعرف و لكن أظن من حقك أن تعلمى أنك لن تغادرى هذا المنزل أبدا من الآن.

حدقت إليه بذهولٍ و غضب ثم سحبت نعلا من خلف باب الغرفة؛ فتحته و خرجت. ارتدت معطفها لكنه أمسك بذراعها قبل أن تهبط السُّلم:

– أخبرتك أنكِ لن تذهبى لأى مكان. (سحبها من جسدها بغلاظة نحو غرفتها.)

– اتركنى! هل أنت مجنون؟!

– سبق و تركتِهم من أجلى؛ لم تبحثين عنهم الآن؟! (وضعها فى الغرفة و أقفل عليهما الباب.)

كانت تنظر إليه بصدمة و نقم. تصرخ و تخبط على الباب بكل ما فيها من قوة:

– أخرجنى من هنا! هل ستسجننى؟!

أمسك بيديها ليكفهما عن الخبط و صرخ فى وجهها:

– تريدين الخروج من هذا السجن؟! أليست هذه الجنة التى خدعتِ الجميع كى تدخليها؟!

انفجرت فى البكاء و هو تتوهن و قواها تخور:

– أخرجنى من هنا! لمَ تفعل ذلك؟! أنا أكرهك .. لم تفعل معى ذلك و قد أحببتك أكثر ما فى هذا العالم؟!

ضمها إلى صدره بقوة بكائها، بقوة ما يشعر من عشقٍ وغيرةٍ و غضب و ما تشعر من ضياعٍ و ضعف. قوة أفقدتهما

سيطرتهما على عقليهما و مشاعريهما و حطمت كل قيود الروح و الجسد، و الشغفِ و الرغبة. بعد مرور وقت لم يحدده أى منهما، نظرت إلى الساعة لتعلم أن الآوان قد مرَّ لتقول وداعا. تطلعت أمامها و قالت بأسىً و مرارة:

- ليس هذا ما أردته لك. لم أرد لك النزول إلى هذا المستوى من الحس. أردت لك ما لا يمكن لأحد أن يمتلكه قبلك أو بعدك.. روحى. لم أرد أن أشركك فيما يمكن أن يشركك فيه بشري. لم أردك كسائر البشر.

- لا تثيرى جنونى أكثر بكلماتك اللامعقولة! لم و لن يستطيع أحد مشاركتى بكِ. أتفهمين؟

- هذا كل ما أدركته من كلماتى اللامعقولة! ...أردتك مرشدا و هاديا. أردتك صورة نقيّة طاهرة، لا تبلى و لا تُدنس! لشخصٍ .. أردت أن أكونه. أردتك فى روحى، حافظا لها من الآثام.

- أنا أيضا إعتقدتكِ ملاكا .

- لم أخبرك أبدا أننى ملاك.

- و لا أذكر أنى فعلت!

obeikandl.com

– لم يكن ضروريا أن تكون ملاكا. ليس هذا ما أردته لنا! حتى فى وجود العشق بيننا.. الحس يظل حسا. هو و الروح لا يلتقيان أبدا؛ هو معذبها و مشقيها، و قد كانت الروح مخدعك الوحيد من نفسى... سامحنى (آدم)! لم أقصد أن أدنسك أو ألوث طيفك النقىّ بداخلى، لم أعرف أننا سننتهى هكذا.

و مرةً جديدة تفقد فيها الشعور بالأمان، بل تشعر أن أمنها السابق لم يكن سوى سراب مجوف بالخوف و محاصر بالحيرة.. من تلك النفس البشرية القابعة بداخلها؛ فشلت تكبحها و فشلت تطلقها؛ حبيسةٌ فى مكانٍ ما مجهولة أبعاده و أبوابه و سراديبه، مجهولةٌ هى الطرق إليه؛ تكتفى ببعضٍ من خيوط النور الناعمة التى تصلها من خلف الجدران الخشبية المتعطِّنة. أيها الحلم البعيد! كيف تتمرد علينا المُضَغ بداخلنا –إلى هذا الحد–، فتحيلك كابوسا يوقظنا فى عمق الليل على الفراغ و الظلام و البرد. آهٍ يا (كارما)! ماذا فعلتِ و ماذا جنيتِ؟! كأنها لم تحاول قط، لم تحارب قط، لم تضحى.. لم تبذل كل ما ملكت و ما ما ملكت كى تحطم جدران الغرفة المشئومة و تصل إلى نور الشمس. سقطت عن الجبل فى منتصف البحر، فلم تمر بشاطئٍ و لم تر برا، و لكن إستبدلت قمة الجبل بمركز البحر!

آه! أنّى لى أن أعود إلى الديار؟! و لكن أين هى الديار؟ و ما هى الديار؟ فى السماء حيث خُلِقنا ذات مرة؟ أم على الأرض حيث نولد و نبصر النور لأول مرةٍ ثم نموت؟! ألا من مروحيةٍ تنقذنا ؟! تنشلنا من عرض البحر بعد السقوط؟! أو منارةٍ تنبه المارين فوق رؤوس الغرقى فينقذونا قبل الغرق؟! آهٍ يا (كارما)! آهٍ يا نفسى التى بداخلي! ما من مروحية و لا منارةٍ و لا بر. فقط حلمٌ لم يردنى فيه؛ قذفنى من الأعلى لحوت البحر الجائع الذى لم يُطعَم منذ زمن.

مرت أيامٌ أُخَر، كثيرة أو قليلة لا نعرف. ربما الوقت أقصر مما بدا أو أطول لا يهم. لم تختلف الأيام و لم يختلف الزمن والأحداث. تستيقظ كل يوم بإعياء و آلام متفرقة المصادر فى الجسدِ و الروح؛ لا تكاد تذكر ما حدث فى الليلة الماضية. تنظر من نافذتها الناقوسية للمنظر المعتاد فى حزنٍ فاتر.. على الأقل شئٌ ما حفظته الطبيعة على حاله، و إن لم يعُد بإمكانها أن تصبح جزءا منه، و مقعدٌ استقر بالجوار عليه ورقةٌ و قلم هما كل ما تبقى لديها، رسائلٌ كثيرة غير مُرسَلة لأمها و أُناسٍ آخرين.

ذات صباح استيقظت على صوت موسيقى اشتاقت إليها بأصابعٍ تخنقها كل ليلةٍ و يوم؛ تتطاير أنغامها فى الأفق عبر النافذة السفلية. لم تعرف لِمَ قفزت مبتسمة ذلك اليوم!

ربما لأنه عاد يعزف لها ثانية، أو هكذا ظنت، إذ هو ذا يحيى المعبد بأنغامه من جديد بعدما حرمها منها ليزيد حسرتها ويحكم خناقه. فتحت دولابها و انتقت الثوب الأجمل على الإطلاق. وقفت أمام المرآة، و حينها ذعرها ما رأت! دققت النظر لتلك الفتاة التى ترى، من هى؟ لم تعرفها ! تلك النظرة فى عينيها و البسمة على شفتيها –كفرحة ملاك الموت بأجراس مهمةٍ جديدة– تخيفها كثيرا عليها و على من تحب. يا تلك الحسناء فى المرآة! يا صاحبة ذات الملامح! من أنتِ؟! إنها حتما.. الوجه الآخر.

فى الأسفل وصلت الأنامل لذروة حماسها و هى تدق أجراس النداء لملاكها الصغير احتفالا غير مسمى. ربما بالعودة إلى الجنة و ربما بالاستقرار على الأرض. لكنها توقفت عندما طال عزفها دون مجيب. تركت أصابع البيانو لتدق على باب الحبيب. فتح بابها لكن لم تكن هناك، يصرخ باسمها و لا تجيب، لكن لمح اسمه بخطوطٍ مختلفةٍ مكتوب، على إحدى الرسائل الباقية فوق مقعدِها المقلوب؛ فجمع تلك الحروف بخطها بين شتات السطور :

"ولنا حكاية..

فى جنح الليل الداكن تفرش ثناياها على أسرّة الذكريات الآثمة؛ تسرد تفاصيلها كاملةً، لتخبر آذانا لا تسمع فى داخلها إلا الصمت، أو أجراس الموت، و ليتها تسمع غير ذلك إن أرادت. لنا حكاية لن نحكيها هنا، و لكن فى مكانٍ آخر من عالمٍ آخر، فى وقتٍ آخر من زمانٍ آخر.. لأناسٍ آخرين، أناسٍ لا يتغيرون و لا يتلونون، فى نقطةٍ ما فى عمق الزمن الواهى الذى لم و لن ندركه، حيث يمكن للروح أن تسبح خلف المرئى و المعقول، لأبعد ما يمكن للنفس أن تتأمل و للعقل أن يدرك و للروح أن تصل، حيثما ليس.. للملائكةِ وجهٌ آخر."

obeikandl.com

obeikandl.com